البحث العلمي عند العرب المسلمين

انصب معظم بحوث المحدثين في تأريخ العرب على الناحيتين السياسية والأدبية . أما النواحي الأخرى من نواحي الحياة ، ولا سيما الناحية العلمية ، فلم تحظَ إلا بعناية قليلة ، مع أنها ليست بأقل خطورة منها من الناحية السياسية أو الناحية الأدبية لأمة ما . ولهذا كان علمنا بالبحث العلمي وباشتغال العرب المسلمين بالعلوم ضئيلاً ساذجاً ، وأكثره من النوع العام الذي لا يستند الى دراسات نقد وتحليل ومقارنات ومقابلات مع الأصول القديمة فجاء جزئياً ناقصاً ، لا يقدم مادة في تأريخ تطور العلم ، ولا رأياً في درجة تقدمه ومقدار صفائه عند العرب المسلمين .

وحينما أقول : العلم ، أقصد ما يقال له « Science » في الانكليزية من أصل كلمة « Scientia » اللاتينية و « Wissenschaft » في الألمانية . ولهذا لن أتحدث هنا إلا عن الموضوعات التي يدخلها أبناء هذا اليوم في هذا الإطار ، كالكيمياء والصيدلة والفلاحة والرياضيات والفلك وأمثال ذلك . وسأحصر كلامي هنا في التحدث عن الكيمياء والفلاحة

هذا ، ولا بد لي ، قبل الدخول في الموضوع ، من الإشارة الى أن من أهم أسباب جهلنا بتأريخ تطور العلم وتطور بحوثه عند العرب المسلمين هو قلة المطبوع من كتب العلوم العربية القديمة ، وسقم أكثر المطبوع من حيث التحقيق والإخراج وكثرة الخطأ فيه . وانصراف أكثر المحققين والناشرين للمخطوطات عن تحقيق المخطوطات العلمية والحرفية وميلهم الى تحقيق الكتب التأريخية والأدبية ، وهي كتب يكتب لها البيع

والانتشار بسهولة ، فبقي معظم كتب العلم مخطوطاً مختبئاً في زوايا المكتبات لا يعرف عنه إلا القليل .

وهذا ما حرمنا الوقوف على الحركة العلمية عند العرب وقوفاً صحيحاً واضحاً . وللتغلب على هذه المشكلات وأمثالها لا بد من قيام المؤسسات الثقافية الرسمية وشبه الرسمية في الأقطار العربية من بعث المخطوطات العلمية بما لها من قدرة مادية وعلمية ومعنوية ، واسناد ذلك كله الى أعضائها العلماء أو الى العلماء المتخصصين بتحقيق المخطوطات والعلماء المتخصصين في المادة التي تخصها المخطوطة بدراستها من النواحي اللغوية والاختصاصية وتحقيقها تحقيقاً علمياً مع دراسة تحليل و نقد ، ليكون إخراج الكتاب كاملاً مفيداً للمؤرخين والباحثين والطالبين ، وبذلك يكون في وسع المؤرخ الاستناد الى مثل هذه المراجع في ابداء رأيه في الحركة العلمية عند العرب المسلمين .

ولما كان التراث العربي العلمي نتاج جهود علماء جميع الأقطار العربية والإسلامية ، وكان ذلك يحتاج الى وضع خطة موحدة بين المؤسسات العلمية والثقافية في نشر المخطوطات وتحقيقها تحقيقاً علمياً دقيقاً صحيحاً . فمن الواجب مراجعة دائرة نشر المخطوطات في الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية عند إقدام أية جهة حكومية في البلاد العربية على نشر مخطوط، للاستئناس برأيها في هذا الموضوع ، ولإبلاغ الجهات المعنية بنشر المخطوطات في البلاد العربية أو الأجنبية بذلك ، لتكون على علم وبينة من الأمر ولوضع خطة علمية موحدة على أساس توزيع العمل ، بقيام كل قطر عربي بنشر ما يخصه نشراً علمياً دقيقاً ، وبذلك تتوحد الجهود العلمية والثقافية العربية في هذا المضمار .

والمطبوع الموجود بين أيدينا من تأريخ تطور المعرفة عند المسلمين ، وابتداء اشتغالهم بها في جميع حقولها وأبوابها من علم وأدب وفن وصناعة ، يرينا أن المعنيين بتدوين تأريخ العلوم والآداب والفنون والصناعة كانوا قلائل ، وأنهم لم يتوسعوا في البحث ولم يكتبوا فيه بسعة واحاطة ، وان هذا الموضوع لم يكن قد خطر ببالهم إلا بعد مدة من اشتغال

المسلمين بالكتابة والتأليف . فلما شرعوا في التدوين لم يجدوا أمامهم مادة كافية ، ولم يصل الى مسامعهم غير هذا القليل المدون ، وأكثره مما يحتاج الى نقد وغربلة وتمحيص . وقد أخذ المتأخرون منهم ما وجدوه أمامهم مما قد دون قبلهم ، فسجنوه كما هو ، ولم يتعبوا أنفسهم بالبحث والاستقصاء لايجاد شيء جديد يضاف الى ما جاء به القدماء .

ولا تجد هذا التقصير في موضوع تدوين العلوم أو الفن أو الصناعة وحده ، بل تجد ذلك حتى في تدوين منشأ العلوم العربية والعلوم الشرعية أيضاً . فأنت اذا رجعت الى كتاب الفهرست لابن النديم ، وهو من أقدم المراجع المؤلفة في هذا الموضوع ، لا تجد فيه شيئاً ضافياً واضحاً عن كيفية نشوء العلوم العربية وعن مبلغ صلتها بالحركة العلمية عند الجاهليين ، ولا تجد فيه كيفية اهتداء أبي الأسود الدؤلي مثلاً الى وضع قواعد النحو وكيفية تطور النحو ونموّه من يوم ظهوره الى ساعة وصوله وتدوينه في كتاب سيبويه . ولا تجد فيه كذلك تقدماً لكيفية ظهور علم العروض وسائر العلوم الانسانية والشرعية عند المسلمين .

والواقع أن فهم الناس للتأريخ في ذلك العهد لم يكن على النحو الذي نفهمه عنه نحن في الزمن الحاضر . فقد كان التأريخ في ذلك الوقت تأريخ حوادث ووقائع ، انصرف الى أعمال الخلفاء والملوك والرجال الذين لهم أثر ظاهر في الحياة . أما تأريخ التدوين وكيفية تطور المعرفة وربط بعضها ببعض وارتباط العلماء المتأخرين بالمتقدمين وما أوجده النوابغ من آراء واختراعات ، فلم يكن موضوعاً مهماً بالقياس الى تلك الأيام ، إلى أن ظهرت الحاجة اليه ، فكان ما فقد كثيراً ، وكان الضائع غزيراً . وقد سبب ذلك لأمثالنا الجهل بتأريخ نشوء المعرفة وتطورها بصورة عامة في العصور الأولى للاسلام .

ونحن إذا ما أردنا التحدث عن العلوم ، فلا بد لنا من الابتداء بعلم كان وما زال له صداه في حياة الإنسان وفي تطوره ، هو علم الكيمياء . وهو علم اختلطت به في ذلك

العهد الشعبذة بالبحث ، والخيال بالعلم . فاجتمع السحر بالتجربة ، واتصل الطمع بالحصول على الثروة والمال بالبحث العلمي المجرد ، بقياسا على ذلك أمبدأ ، إلى أن تغلبت التجارب العلمية فيه على الشعبذة ، وفازت المعرفة العلمية على الآراء الخيالية البالية ، فنقي هذا العلم من الشوائب ، وصار علماً بل علوماً استقلت منه على النحو المعهود في العهد الحاضر . وستظهر منه فروع جديدة في المستقبل بالطبع .

وعلم الكيمياء في ذلك العهد علم يرتاده طالبوه طمعاً في الحصول على الذهب والمال في الغالب ، وقلما حفل به غير هؤلاء . وهو ذو أصول شرقية وغربية ، تغلبت على أصوله الشرقية الطلسمات والسحر والتعاويذ ، وتغلبت على أصوله الغربية النزعة الى التجربة واستخدام الآلات والأدوات والنار والحوامض و « القلزات » لتحويل المعادن الخسيسة الى هذا المعدن النفيس الذهب . محبوب القلوب . وعُدّت الكتب المؤلفة فيه ، من الكتب الثمينة الغالية ، كما عُدّ المشتغلون به الكيمياءَ صنعة ذات أخطار وذات أسرار لايجوز إفشاؤها ولا البوح بها إلا لخاصة الخاصة .

والحديث عن مبدأ هذا العلم عند العرب حديث غير ممكن في الزمن الحاضر ، لسبب واحد بسيط : هو عدم وجود مادة في أيدينا تمكننا من الوقوف على كيفية نشوئه وظهوره عند الجاهليين والاسلاميين . ولكننا إذا كنا في هذا الجهل بكيفية ظهور الكيمياء عند العرب وبأبطالها ورجالها في تلك الأيام ، فإننا نستطيع أن نأتي بخلاصة موجزة عن رجال اسلاميين ، ذكر في كتاب الفهرست وغيره أنهم كانوا ممن اشتغلوا بالكيمياء ، وبالصنعة كما يقال عليها أيضاً .

وبعد ، فان الحديث عن الكيمياء يدفعنا الى الابتداء بالتحدث عن ثلاثة أعلام يرتبط كل واحد منهم بهذا العلم ، هم : خالد بن يزيد بن معاوية ، وجعفر الصادق ، وجابر بن حيان .

أما الأول ، فهو أبو هاشم خالد ابن الخليفة يزيد الأول ثاني الخلفاء الأمويين ، وحفيد معاوية مؤسس الدولة الأموية . فهو من أسرة شريفة حاكمة ، ومن بيت قديم من بيوتات مكة ، عرف بمنافسته لبني هاشم في الجاهلية وفي الاسلام . وهو أول من ورد اسمه من العرب المسلمين مقروناً بهذا البحث . وقد نسبت اليه بحوث مدونة وغير مدونة فيه ، بقيت منها نتف واقتباسات في بطون الكتب ، وأشعار في الصنعة يذكر راووها أنها مما نظمه هذا الأمير العالم في علم الكيمياء وفيما يتعلق به .

أما سيرته فكل ما نعرفه منها أنه عاش في كنف والده زهاء عشرين عاماً ، وعاش حتى سنة (٨٥) للهجرة (٧٠٤ م) [1] ، وأنه لم ينل الخلافة بعد وفاة أخيه معاوية الذي كان لا يكبره في السن إلا ببضع سنين والذي لم يتمكن من الحكم الا أياماً معدودات بلغت أربعين في رواية ، أو ستين في رواية أخرى [2] . توفي بعدها فأتت الخلافة « مروان بن الحكم » ، ثم ابنه من بعد وفاته « عبد الملك » . ولم تعطف على خالد ولم تمل اليه .

ويظهر من الروايات عن وفاة « معاوية بن يزيد بن معاوية » ، أنه كان هو السبب في حرمان أخيه وبقية اخوته وأهل بيته من السفيانيين من الخلافة ، إذ رفض أن يعهد بها الى أحد منهم حينما حضرته الوفاة ، قائلا : « والله ، ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقلد وزرها ، وتتحملون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ؟ اللهم ، اني بريء منها ، متخل عنها ! اللهم ، إني لا أجد نفراً كأهل الشورى ، فأجعلها اليهم ينصبون من يرونه أهلاً لها » . وهذا مما أثار غضب أمه وأهله عليه وسبب حرمان بني سفيان منها ، وانتقال الخلافة منهم الى

(١) علي الطنطاوي : تأريخه عند العرب في القرون الوسطى ، (١٩٣٢) ، (ص ١٣٢) ،
Brockelmann Supl., I. S. 106.

(٢) مروج الذهب (٣/٢٠) ، ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم » .

آل مروان، ومنهم خالد بن يزيد [1].

ويظهر من بعض الأخبار أن صلات خالد بن يزيد بالخليفة مروان بن الحكم لم تكن على ما يرام، وذلك لاعتقاده أن مروانا قد اغتصب حقه في الملك، وأنه أخذه منه ظلماً. وفي بعض الأخبار ما يفيد وقوع ملاحاة بين الاثنين، وأن ذلك دنا إلى تأثر أم خالد من زوجها مروان فوضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليها هي وجواريها حتى مات [2].

ولم يرو المؤرخون شيئاً كثيراً عن صلاته بالخليفة عبد الملك بن مروان إلا ما ذكروه من أن عبد الملك أرسل اليه حين فكّر في ضرب العملة في بلاد المسلمين، وتحويلها من دنانير رومية الى دنانير عربية، يسأله رأيه في ذلك، فأشار عليه أن يضرب العملة، ويمنع التعامل بدنانير الروم [3]. وهو خبر يتعارض مع أخبار أخرى أوردها أهل الأخبار عن ابتداء ضرب العرب للدنانير في العصر الأموي. وهي أقدم منه عهداً لورودها في كتب هي أقدم من الكتب التي اشارت الى نصيح خالد لعبد الملك في أمر تعريب الدنانير [4].

وإلا ما ذكروه من قصته مع عبد الملك في شأن أخيه عبد الله بن يزيد بن معاوية والوليد بن عبد الملك، وكان يعبث به ويحتقره ويظهر من ثنايا القصة أن صلته بالخليفة لم تكن على ما يرام [5].

وقد كان خالد كما يبدو من بعض ما أورده أهل الأخبار عنه معجباً بنفسه، معتداً بأهل بيته، على الرغم من خسارته الملك وذهاب الخلافة منه. وقد أدّى ذلك الى وقوعه في

(١) مروج الذهب (٣/٢٠) «ذكر أيام معاوية بن يزيد بن معاوية».

(٢) الأغاني (١٦/٨٦ وما بعدها).

(٣) Karabacek, S. 15. f.

(٤) Ruska, S. 11.

(٥) ابن خلكان (٥/١٤٢ وما بعدها).

مشاكسات مع بعض الناس ، مثل الحجاج ، والى تطاولهم عليه بالقول [1] . ولعلهم كانوا يدفعون في ذلك بإيحاء من مروان ومن ابنه عبد الملك ، للحط من منزلته ، وإبعاده عن كل تفكير في استعادة الخلافة من آل مروان .

واذا كان خالد قد أخفق في نيل الخلافة أيام أخيه الضعيف وأيام مروان الطاعن في السن ، فقد كان من غير الممكن بالنسبة اليه استلامها من « عبد الملك » ذي الشخصية القوية والبأس الشديد . والظاهر أن خالداً كان كأخيه ضعيف الارادة لم تتوفر فيه الصفات التي يجب أن تتوفر في شخص يريد استرجاع ملك ضائع منه مسلوب ، لم يكن في امكانه تكوين جماعة تلتف حوله لمساعدته في استرجاع حقه في ملك أبيه ، ولم تكن لديه المؤهلات التي يجب أن تتوفر فيمن يريد الحكم والزعامة ، وهذا قبع في بيته مفضلاً الانزواء على الاصطدام بآل مروان ، معزياً نفسه بالاشتغال بنظم الشعر وقراءة الكتب القديمة ، ولا سيما كتب الكيمياء والطب ، وملازمة المشتغلين بها ، وملازمة بعض أصدقائه الخلص ، حتى وافته منيته وهو في هذه الحال .

قال فيه محمد بن اسحاق بن النديم صاحب كتاب الفهرست : « الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية . وكان خطيباً شاعراً ، فصيحاً حازماً ذا رأي ، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . وكان جواداً ، يقال إنه قيل له : لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة ، فقال خالد : ما أطلب بذلك إلا أن أغني أصحابي وإخواني . إني طمعت في الخلافة ، فاختزلت دوني ، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا أحوج أحداً عرفني يوماً أو عرفته الى أن يقف ببابي السلطان رغبة أو رهبة . ويقال ، والله أعلم إنه صح له عمل الصناعة » [2].

---

(١) الأغاني (١٦/٨٦) .

(٢) الفهرست (ص ٩٧) ، طبعة القاهرة .

ومن يدري ؟ فلعله كان يرى في الكيمياء المخرج المؤدي الى أسترجاع الخلافة ، والسبيل المؤدي اليها ، بما كان في هذه الصنعة من أسرار اذا وقف الانسان عليها صار في إمكانه تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، والذهب هو الكفيل بالحصول على كل شيء في هذا الكون ، وفي جملة ذلك الخلافة . فسينفق منه على الناس ، وبذلك يمتلكهم ، ويجعلهم في جانبه في استرجاع الخلافة من مغتصبها عبد الملك بن مروان .

وذكر بعض أهل الأخبار أن خالد بن يزيد « هو الذي وضع خبر السفياني ، وكبره ، وأراد أن يكون للناس فيه طمع حين غلبه مروان بن الحكم على الملك ، وتزوج أمه[1] ». وهناك من يشك في صحة هذه الرواية ، ويرى أن خبر السفياني خبر ورد بطرق متعددة ومن رواة مختلفين[2] .

ولا ندري بالطبع كم كلفت هذه الصنعة خالد بن يزيد من مال . ولكننا نستطيع أن نقول على كل حال إنها كلفته كثيراً ، وإنه ظل يعمل جاداً ما شاء الله في هذه الصنعة طمعاً في الوصول الى هدفه المنشود ، وإنه كان كلما تراءى له شبح شيء برّاق لونه يشبه لون الذهب زاد أمله في الحصول عليه . ونحن نعرف أن هذا الأمل أنلس كثيراً من الناس ، وذهب بعقل بعض منهم ، حين خابوا في الحصول على الثروة والمال والتحكم في المعادن الخسيسة ، تحكم علاء الدين في خاتمه أو في المصباح السحري المنسوب اليه .

والواقع أن اعتقاد القدماء أن في امكان المتفرس بعلم الكيمياء التوصل الى سرّ تحويل المعادن الخسيسة الى معدن نفيس ، هو الذي حمل أكثر الكيمياويين على دراسة هذه الصنعة والانصراف اليها ، حتى في هذا العهد فاننا نجد بعض الناس يقبلون على مطالعة الكتب الكيمياوية القديمة ، ويدرسونها ليل نهار ، ويعملون بما يرد فيها من توجيهات للتوصل الى ذلك السرّ : سرّ تحويل القصدير والمعادن الرخيصة الى إكسير التبر .

---

(١) الأغاني (١٦/٨٠) .

(٢) المصدر نفسه .

وقد ذكر ابن النديم حكاية أخرى عن خالد ، فقال : « كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلاً في نفسه ، وله همة وبحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة ، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي . وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة »[1] .

فالذين نقلوا الكتب من اليونانية والقبطية الى العربية ، ثم كما ذكر ابن النديم جماعة من الأجانب الأعاجم ، ممن كانوا بمصر ، كانوا قد اتقنوا العربية وتفصحوا فيها ، كما كانوا قد أتقنوا الصنعة والعلوم الأخرى وتخصصوا فيها . ولم يذكر ابن النديم اسم أحد من هؤلاء النقلة إلا اسم رجل واحد دعاه « اصطفن القديم » . وقال فيه : إنه نقل له كتب الصنعة . ويعني بها كتب الكيمياء . واذن يكون « اصطفن القديم » أقدم رجل ورد اسمه على وجه التأكيد وترجم الكتب العلمية من اللغات الى اللسان العربي[2] .

ولكن مَنْ هذا الفيلسوف اليوناني المتقن للعربية الفصيح بها « اصطفن القديم » ؟ إن علمنا بسيرته جد قليل . لم يرو ابن النديم من خبره ما يوضح سيرته وعمله . لم يذكر متى ولد ومتى توفي ، ولِمَ لقب بـ « القديم » ، وأين عاش ، وما آثاره ومؤلفاته إن كانت له آثار ومؤلفات وكيف كانت صلاته بخالد بن يزيد ؟ لقد أشار ابن النديم في أثناء كلامه على « أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة » الى رجل دعاه اصطفن ، وقد ذكره بعد خالد بن يزيد في الترتيب ، وقبل اسم رجل آخر دعاه « حربي » ، وقد ورد اسم « حربي »

---

(١) الفهرست (ص ٣٥٨) ، نقل هذه الفقرات كاتب جلبي ، صاحب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون دون أن يشير الى الفهرست ، راجع الجزء الثالث من طبعة « فلوكل » ، الصفحة (٩٠) .

(٢) الفهرست (ص ٣٥٤) « أسماء النقلة من اللغات الى اللسان العربي » ، كشف الظنون (٣/١٧) ، « طبعة فلوكل » .

هـذا قبل اسم جابر بن حيان [1] . فهل أراد ابن النديم بـ « اصطفن » هـذا « اصطفن القديم » ؟.

وورود اسم اصطفن بعد اسم خالد بن يزيد ، يدل بالطبع أنه كان من المعاصرين له ، ولما كان هذا الرجل من أصحاب هذه الصنعة ، فلا يستبعد أن يكون هو الذي دعاه ابن النديم بـ « اصطفن القديم » . وقد ذكر ابن النديم بعد انتهائه من الكلام على خالد بن يزيد وفي أثناء حديثـــه عن « أسماء الكتب التي ألفها الحكماء » اسم كتاب في الصنعة دعاه « كتاب اصطفن » [2] . لكنه لم يذكر شـــيئاً عن هذا الكتاب وموضوعاته وعنوانه الحقيقي . فهل يعد هذا الكتاب من صنعة اصطفن المعاصر لخالد بن يزيد ؟ قد يجوز أن يكون من مؤلفاته أو من منقولاتـه . لكنني لا أستطيع أن أقول ذلك جازماً ، فهنالك جملة مؤلفين عرفوا بـ « اصطفن » أو « اصطفان » . ولهذا أرى التريث والتروي في إبداء رأي قاطع في نسبة هذا الكتاب .

وقـد ورد في بعض رسـائل الكيمياء المنسوبـة الى خالد بن يزيد أن خالداً راجع كثيراً من كتب الكيمياء كما راجع رجال الصنعة ، ولكنه لم يتمكن من فهم الصنعـــة والوقوف على أســـرار تلك الكتب ، حتى اهتدى الى رجل نصراني اسمه « أستفانس الراهب » ، فزاره ، واتصل بـه ، وكتم أمره عنه ، ولم يبح له باسمه ، الى أن تعلم الصنعة منه ، ونال منه « معاني الفوز » ، فكشف له عندئذ عن حقيقته [3] . فمن هذا الراهب المشتغل بالصنعة والكيمياء ؟.

لقد ذكر ابن النـديم ، في اثناء كلامه على علماء الصنعة والكيمياء ، اسم رجل دعاه

(١) الفهرست (ص ٤٦٢) .

(٢) الفهرست (٤٩٨) .

(٣) H. E. Stapleton and R. F. Azo, an alchemical Compilation of the thirteenth Century, A. D. Memoirs, AS. Soc, Bengal, 1910, Vol., III, No. 2 P. 86, Ruska, S. 10

« اصطفن الراهب » ، نقال انه « كان بالموصل في عمر يقال له ميخائيل ، وكان يحكى عنه أنه عمل الكيمياء . فلما مات ، ظهرت كتبه بالموصل ، فرأيت منه شيئاً . وهي : كتاب الرشد ، كتاب ما حدثناه ، الباب الأعظم ، كتاب الأدعية والقرابين التي تستعمل قبل صناعة الكيمياء ، كتاب الاختيار النجومي للصناعة ، كتاب التعليقات ، كتاب الأوقات والأزمنة »[1] .

ولم يذكر ابن النديم الزمن الذي عاش فيه هذا الراهب . ولهذا فليس في وسعنا أن نزعم أنه هو الشخص الذي تعلم منه خالد صنعة الكيمياء . هذا ، وذكر ابن النديم رجلا آخر قال إنه « من الفلاسفة أهل الصناعة الذين شهروا بها ، وألفوا فيها كتباً » . وقد دعاه « اسطانوس الرومي » . وذكر أنه كان من أهل الاسكندرية ، وله من الكتب على ما ذكر في بعض رسائله ألف كتاب ورسالة ، ولكل كتاب ورسالة اسم يسمى بها[2] . ولكنه لم يذكر أيضاً زمن هذا المؤلف الفيلسوف الكيمياوي ، ولهذا فليس في استطاعتنا أن نتحدث عن وجود صلة له بخالد بن يزيد .

وقد ذهب بعض المستشرقين الى احتمال أن يكون « اسطانوس » أو « اصطفن الراهب » المذكور هو « استفانوس Stephanus » أحد الباحثين في الكيمياء والطب في أيام القيصر « هرقل Herakleios » . وله بحوث في الموضوعين المذكورين وشروح للكتب المتقدمة التي وضعها علماء اليونان[3] . أما أنا فأرى صعوبة تصور ذلك ، لفارق الزمن بين الاثنين ، ووجوب تخيل عمر طويل للعالم اليوناني ليكون في الامكان اتصال خالد بن يزيد به .

---

(١) الفهرست (ص ٥٠٦) .

(٢) الفهرست (ص ٤٩٦) .

(٣) Ruska. Arabische Alchemisten, S. 50 ff

ويفهم مما ذكره ابن النديم عن خالد بن يزيد أن خالداً كان قد ألف عدة كتب ورسائل في الصنعة ، وأنه كان قد نظم شعراً كثيراً في هذا المعنى . وقال إنه رأى منه نحو خمس مئة ورقة ، وأنه رأى من كتبه : كتاب الحرارات ، وكتاب الصحيفة الكبير ، وكتاب الصحيفة الصغير ، وكتاب وصيته الى ابنه في الصنعة [1] . وذكر صاحب كتاب كشف الظنون كتاباً سماه « سر البديع في فك رمز المنيع في علم الكاف » ، زعم أنه لخالد ، ويظهر أنه وقف عليه كما يفهم ذلك من قوله : « أوله اعلم أيها الأخ الخ ... [2] » كما أنه ذكر له كتاباً آخر سماه « فردوس الحكمة في علم الكيمياء » ، وقال في صفته : إنه « منظومة في قوافي مختلفة ، وعدد أبياتها ألفان وثلاث مئة وخمسة عشر بيتاً ، وان أوله : الحمد لله الواحد الفرد الذي له الفخر والمجد . الخ :

يا طالب لصناعة الكيمياء منطقاً حقاً بغير خفاء [3] »

ويظهر أنه من هذا الكتاب كان نقل الأبيات التي نجدها في كتب الصنعة ، وأنه هو كتاب « الفردوس » الذي اشار اليه الجلدكي كما سنرى فيما بعد .

وقد نسب صاحب كشف الظنون له كتاباً آخر دعاه « كتاب الرحمة » ، ووصفه فقال إنه يشتمل على أربعة فصول في معرفة الحجر وفي الأوزان وفي التدبير وفي الخواص [4] .

وأشار صاحب كشف الظنون في باب الميم الى مقالة لخالد بن يزيد في الكيمياء ، قال فيها إنها رسالة عظيمة في هذا الشأن [5] ، ولم يذكر من أمرها شيئاً .

---

(١) الفهرست (ص ٣٠٧ ، ونشرة ١٣٥٥) .

(٢) كشف الظنون (٢ : ١٠٢٧)

(٣) كذا ورد كشف الظنون (١ / ١٣٠٤) .

(٤) « ولخالد بن يزيد كتاب الرحمة أيضاً ، يشتمل على أربعة فصول في معرفة الحجر وفي الأوزان وفي التدبير وفي الخواص » ، كشف الظنون (٢ / ١٨٧) .

(٥) كشف الظنون (٢ / ١٥٣) .

وقد ورد في بعض المؤلفات أن أحد وزراء مصر وجد سنة ٤٣٥ هـ في خزانة الكتب بالقاهرة كرة تمثل السماء مصنوعة من النحاس من عمل بطليموس ، وقد كتب عليها : « حُملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية [١] » .

وقد ذكر « الجلدكي » ، عز الدين أيدمر بن علي بن أيدمر [٢] ، في كتابه « غاية السرور في شرح ديوان الشذور » أن خالداً « كان مشتغلا بالحكمة والفلسفة في حياة جده معاوية ، واستمر على ذلك مدة أيام أبيه ، وطُلب للخلافة بعد موت أبيه ، فامتنع وولي الخلافة أخوه معاوية وصحب خالد مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، وتجهز معه الى بلاد الروم ، وحضر حصار القسطنطينية الى أن فتحت صلحاً ، وظفر منها بكتب كثيرة من كتب اليونان . واشتغل في حداثة سنه على الراهب مريانس . كان في دير خارج دمشق وباشر عنده العمل بعد العلم مدة عشر سنين من خلافة جده معاوية . وتم وصوله واتصاله في خلافة أبيه يزيد » .

وذكر أيضاً أن خالداً لما توفي ، « كان سبباً لضعف شوكة بني أمية ، وأخذ حالهم من بعده في النقص ، مع أنه عمل بدمشق طلسمات كثيرة في الجامع الأموي وحول الجامع وفي سور دمشق وبعضها باق الى الآن ، تفسده الله بالرحمة والرضوان . وبسببه جلبت الكتب من بلاد الروم الى الشأم الجلبة الأولى في الفلسفة والحكمة والطب والهندسة والنجوم والحيل والأعمال وجر الاثقال وغير ذلك . وصنف هو كتباً كثيرة في عدة علوم ، وأعلى

(١) تاريخ الحكماء لابن القفطي (ص ٢١٠) ، طبعة أوربة ، كاتينو علم الفلك : تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (١٣٧) .

(٢) « الجلدكي : علي بن محمد بن أيدمر الجلدكي ، عز الدين » ، المتوفى بعد سنة ٧٤٢ للهجرة ، الأعلام (٥/١٠٢) ، هدية العارفين (١/٧٢٣) ، الذريعة (١/٢٠٥) ، (٣/٩٦ و ٨٩) ،
Brockelmann. II,158, Suppl., 427. I. II. 171, 1035., III. 597.

كتبه في الصنعة : الفردوس ، وهو كتاب نفيس [1] » . وذكر الجلدكي أن طلبة زمانه لا يعرفونه ولا يفهمونه إلا باللفظ والمطالعة للعيان . وأما بفهم المعاني ، فهم في البعد الأبعد . ونقل منه أبياتاً في كتابه هذا ، وفي كتابه انوار الدرر في ايضاح الحجر [2] .

وفي العبارات المتقدمة عن فتح القسطنطينية خطأ تأريخي لا حاجة بي الى بيانه ، وقد وقع أيضاً في أخطاء تأريخية أخرى معروفة لا تهمنا هنا . أما استجلابه الكتب من القسطنطينية، فلا يستبعد ذلك ، فقد كان علماء النصارى يذهبون الى القسطنطينية ، ويتصلون برجال الدين الروم ، فلا يستبعد أن يكون خالد قد كلفهم شراء الكتب منها ، كما لا يستبعد شراؤه بنفسه الكتب وهو في صحبة مسلمة بن عبدالملك . وقد ذكر أيضاً أنه كلف جماعة استجلاب كتب العلم اليه من مصر . وأنه هو نفسه اشتراها من مصر . وقد ثبت هذا المؤلف مكان « مريانس » فجعله في دير من الأديرة خارج دمشق . أما زعمه من أنه اشتغل في حداثة سنه على الراهب ، وباشر عنده العمل بعد العلم مدة عشر سنين من خلافة جدّه ، فأمر يحتاج الى نظر ، إذ يصعب تصور موافقة معاوية على ارسال حفيده وهو في هذا السن الى راهب في دير خارج دمشق .

ونجد في بطون الكتب شيئاً كثيراً من الشعر منسوباً الى خالد . وفي « كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب » لأبي القاسم محمد بن أحمد العراقي ، أشعار عديدة منسوبة اليه . ولما كان هذا الكتاب في الصنعة والكيمياء ، فإنه لم يخو من شعر خالد إلا ما له علاقة بهذا الموضوع . وأول ما أستشهد به من شعره هو في الفصل الثاني ، في الاستشهاد على الكمية الأولى ، وهو في قافية القاف ، وأوله :

تحاسك بيّضه عماء الزوابق تنل سعة في الرزق من فضل رازقِ

(١) A. Siggel. Kata der Arab. Alchem., 1949, P. 50.

(٢) راجع الصفحات ٢٣ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٨٤ Siggel. S.

وزاوج لطيف الماء إن كنت عالماً بلين هواء كامن في المناطق [1]

وفي أثناء استشهاد « العراقي » بأقوال الحكماء في كيفية الابتداء ، قبل تسمي العمل الأول وتسمى العمل الثاني ، أورد بيتاً لخالد بن يزيد هو :

أول هذا العلم تكليس الحجر بحر نار دونها نار سقر [2]

ثم أورد له شعراً في قافية الهمزة ، ذكره في الفصل الرابع في الاستشهاد على كيفية الابتداء في القسم الأول من العمل الأول ، وهذا مطلعه :

يا باحثاً عن صنعة البراء ودقيق ما صنعوا من الأشياء

ميّز ، فديتك ، ما أقول ، ولا تكن كالجاهل الجوّال في عمياء [3]

وأورد له أشعاراً أخرى في المواضع الباقية من الكتاب ، كلها على هذا النسق من تعليم الصنعة وشرحها وفي كيفية العمل بها [4] .

وأورد « العراقي » نبذاً من أجوبة رجل من أصحاب الصنعة اسمه « مريانس » عن أسئلة وجهها اليه خالد بن يزيد ، يظهر منها أن مريانس كان مرجعاً في علم الكيمياء يرجع خالد اليه ، وأنه كان على صلة وثيقة بالأمير الأموي . وفي جملة ما أورده جوابه عن سؤال لخالد في موضوع « اكسير الحمرة » و « الاكسير الأحمر » ، فقال : « وقد قال مباشر الحكماء : إنه ينمو بلا نهاية ، ويزيد في صبغه بلا نهاية ، ولهذا قالوا : إن المثقال منه يملأ ما بين المشرقين ، ولهذا قال مريانس الحكيم لخالد بن يزيد : إعلم ، أيها الأمير ، أنه يزيد بلا نهاية كمية وصبغاً » [5] .

---

(١) كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب (ص ٣٤) ، « طبعة باريس ١٩٢٣ » .

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٦) .

(٣) كذلك (ص ٣٩ وما بعدها) ،

(٤) كذلك (الصفحات ٤٠ ، ٤٣ وما بعدها ، ٤٧ ، ٤٩ وما بعدها) .

(٥) العلم المكتسب (ص ٣٣) .

وفي الفصل الذي عقده « العراقي » على وحدة الماهية المتقوم منها صورة الاكسير وتعريفها ، اقتبس أجوبة لهذا الحكيم عن أسئلة سألها خالد ، فقال : « وقال مريانس لخالد بن يزيد : أما ما سألت عنه من الأصل أمن شيء واحد أم من أشياء شتى ؟ فإن ذلك شيء واحد وجوهر واحد ونوع واحد ، ومنه وبه ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه » [1] .

وأورد « العراقي » سؤالاً لخالد في موضوع العلاج الثاني وجهه لأستاذه « مريانس » ، وذلك في « الفصل الثاني : في الاستشهاد من أقوال الحكماء على القسم الثاني من العمل الثاني » . وأورد معه جواب « مريانس » عليه [2] . وهو آخر ما أورده هذا المؤلف من مقتبسات في الكيمياء لهذين الرجلين .

والأسئلة والأجوبة المذكورة تشير الى وجود مراسلات وصلة بين خالد و « مريانس » ، وتشير الى أن خالداً كان يرجع اليه في هذا الموضوع ، وأنه كان في جملة من تعلم منهم علم هذه الصنعة . ونجد في كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان إشارة اليه في ترجمته لخالد بن يزيد . فقد ذكر المؤلف أن خالداً « أخذ الصنعة عن رجل من الرهبان يقال له مريانس الراهب الرومي ، وله فيها ثلاث رسائل . تضمنت إحداهن ما جرى له مع « مريانس المذكور » وصورة تعلمه منه ، والرموز التي أشار اليها » [3] . فيظهر من اشارة ابن خلكان الى هذا الرجل أنه كان من رجال الدين ، وأنه كان راهباً ، وأنه كان من الروم .

وقد أشار كاتب چلبي الى وقوفه على رسالة في الصنعة والكيمياء ، قال إنها رسالة عظيمة في هذا الشأن ، ودعاها « مقالة مريانس الراهب » في الكيمياء . ولم يتحدث بشيء عن مضامينها . وذكر بعدها أنه كان لخالد بن يزيد مقالة مماثلة في الكيمياء [4] .

---

(١) المصدر نفسه (ص ٢٨ وما بعدها) .

(٢) العلم المكتسب (ص ٤٨ وما بعدها) .

(٣) وفيات الأعيان (ج ٥/١٤٦ وما بعدها) ، طبعة عيسى البابي الحلبي .

(٤) كشف الظنون (٢/٥٠٣) .

وذكر في بعض الكتب رجل آخر قيل إن خالداً أخذ منه العلم . وذلك هو يحيى النحوي المعروف بالبطريق ، وكان من الدارسين للفلسفة والطب ومن المؤلفين . وقد ذكرت أن خالداً أخذ الطب منه [1] .

ويحيى النحوي المعروف بـ « Joannes Grammaticus » عند الغربيين وبـ « Joannes Philoponus » كذلك هو من رجال القرن السادس للميلاد [2] . وقد ألف وكتب باليونانية ، ونقل بعض مؤلفاته الى العربية . وقد ذكره ابن النديم في الفهرست وسمى مؤلفاته . وقد توفي خالد بن يزيد سنة ٨٥ للهجرة (٧٠٤ م) ، فلا يمكن أن يكون ممن أخذ العلم عن « يحيى النحوي » وممن اتصل به . ولا يمكن أن يكون « يحيى » ممن أدرك الفتح الإسلامي لمصر ، وبلغ أيام عمرو بن العاص كما ذهبت الى ذلك بعض الموارد العربية [3] . وقد أخطأت هـذه الموارد في تعيين الشخص ، ولم تصب في اختيار الرجل الصحيح ، وذهب الأب لويس شيخو الى أن هذا الرجل المقصود هو « يوحنا النقوي أو النحوي » أسقف « نحو » ، وهو صاحب كتاب في التأريخ ألفه في الإسكندرية ، ضاع أصله ، وبقيت ترجمته بالحبشية . وقد تعرض فيه لوصف فتح العرب لمصر ، وقد كان بمصر أيام عبدالعزيز ابن مروان [4] . وأن الأمر التبس على المؤلفين العرب . فظنوا أن « يحيى النحوي » هو « يحيى النحوي » المؤلف المشهور [5] . ويحتمل في نظري أن يكون هو الشخص الذي

(١) كتاب تتمة صوان الحكمة ، لاهور ١٣٤١ هـ (ص ٢٤) ، تأريخ حكماء الاسلام ، لظهير الدين البيهقي (تحقيق محمد كرد علي) (ص ٤٠) .

(٢) لويس شيخو اليسوعي : كتاب المخطوطات العربية لمكتبة النصرانية ، بيروت ١٩٢١ (ص٢١٣) المشرق : المجلد السادس عشر (١٩١٣) (ص ٤٢ وما بعدها) .

(٣) الفهرست (ص ٣٠٤) « طبعة أوربية » ، « ص ٣٥٦ » طبعة مصر ، المشرق : المجلد السادس عشر (١٩١٣) (ص ٤٢ وما بعدها) ، ابن القفطي (ص ٣٠١) ، تأريخ ابن العبري (ص ١٢٥) .

(٤) المشرق : المجلد ١٦ (١٩١٣) (ص ٤٢ وما بعدها) .

(٥) المصدر المذكور .

أشار اليه « البيهقي » ، ويحتمل أن يكون غيره ، كأن يكون شخصاً آخر اشتهر في ذلك العهد باسم « يحيى » أي « يوحنا » ، وقد عرف ببحوثه في الطب والكيمياء . وظن الأخباريون خطأ أنه « يحيى النحوي » ، وقد وقع أهل الأخبار في كثير من أمثال هذه الأغلاط من جرّاء التشابه في الأسماء .

واذا استثنينا الأشعار والمقتبسات التي ذكرنا ، المنسوبة الى « خالد » ، وبعض الرسائل المنشورة باللاتينية ، فاننا لا نملك حتى الآن أثراً مطبوعاً في أي علم من العلوم الثلاثة : الكيمياء والطب والنجوم التي اشتهر وعرف بها . كذلك لا نملك اليوم ترجمة ما لكتاب من الكتب التي ذكر العلماء أن المترجمين كانوا قد ترجموها له تلبيةً لطلبه . ولو حصل العلماء على احداها لكانت من أقدم الكتب المعربة في العلوم عند العرب ولا شك .

إن اشتغال خالد بطلب الكيمياء لم يقابل بالرضا في المجتمع في ذلك العهد . فلم يكن من المناسب في نظره اشتغال العربي الشريف بأمثال هذه الصنعة التي لا تليق إلا بالهجناء والعامة والموالي . ولذلك عيّر باشتغاله بها وعيب عليها كالذي ذكروه من أن محمد بن عمرو بن سعيد بن العاص اختصم يوماً مع خالد ، وذلك بسبب قول خالد له : « ما يقدم علينا أحد من أهل الحجاز إلا اختار المقام عندنا على المدينة » . فظن محمد أنه يعرض به ، فقال له : « وما يمنعهم من ذلك وقد قدم قوم من أهل المدينة على النواضح ، فنكحوا أمك وسلبوك ملكك ، وفرغوك لطلب الحديث وقراءة الكتب وعمل الكيمياء الذي لا تقدر عليه [1] » . وكالذي ذكره « الأصبهاني » مؤلف الأغاني عنه قوله : « وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ، فأفنى بذلك عمره ، وأسقط نفسه [2] » .

(١) الأغاني (١٦/٨٦)

(٢) المصدر نفسه (ص ٨٤)

وقد شك ابن خلدون في اشتغال خالد بن يزيد بالكيمياء ، وخطأ من يزعم أن خالد بن يزيد كان من رجال الكيمياء ، بل ذهب الى القول بوجود خالد آخر غيره ، ليوفق بين رأيه هذا في نفي الصناعة عن خالد ، والأخبار المتواترة عن اشتغاله في الكيمياء . وحجة ابن خلدون في النفي أن « خالداً من الجيل العربي والبداوة اليه أقرب ، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة . فكيف بصناعة غريبة المنحى ، مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها . وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب ، لم تظهر بعد ولم تترجم . اللهم إلا أن يكون خالد بن يزيد (؟) آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه ، فممكن [1] » .

وحجة ابن خلدون هذه ، لا تقوم على دليل تأريخي مقبول مقنع في نفي الكيمياء والعلوم الأخرى عن خالد ، وقد فاتت ورسخت لدى ابن خلدون من نظريته التي هيمنت عليه ، من أن العرب كانوا قوماً أعراباً ، والأعرابي ـ حسب رأيه ـ بدائي بطبعه يكره العلم والصناعة . ولهذا لم يتل اليها عند ظهور دولة المسلمين الا الأعاجم والموالي . أما العرب الخلص ـ حسب رأيه أيضاً ـ فقد انصرفوا بحكم طبيعتهم وغريزتهم الى الملك والسلطان . وهي نظرية لا مجال لمناقشتها في هذا المكان : لا تقوم بالطبع إلا على رأي لم ينبعث عن تتبع وتحليل للتأريخ ، وإنما عن ملاحظات عامة صورت للمؤلف تلك الصورة . فحاول تفسير تأريخ العرب بموجبها ، وبحسب هذا الرأي .

وبعد ، فقد رأينا أن من الصعب التثبت من مقدار احاطة خالد بالكيمياء ومن هذا المنسوب اليه شعراً أو نثراً في هذه الصناعة [2] . ولكن شيئاً مهماً جداً يمكن استخراجه من هذا المروي عنه ، وهو مهم بالنسبة لهذا اليوم ، هو اشتغال خالد نفسه بصورة عملية

---

(١) ص مقدمة ابن خلدون : ٤٤٥ ، طبعة بولاق .

(٢) راجع : كارل بروكلمان : تأريخ الأدب العربي ، تعريب الدكتور عبد الحليم النجار ، (١/٢٦٢ وما بعدها) .

في صنعة الكيمياء واجراؤه تجارب فيها ، وتهيئته الأدوات والمواد اللازمة للاشتغال ، على أمل تحويل المعادن الخسيسة الى معادن نفيسة . وهذا العمل هو عمل مختبري ، تجري فيه تجارب للتوصل الى الغاية التي وضعها صاحب هذه التجارب في ذهنه عنها ، وهو عمل يستحق عليه كل تقدير . ونحن نأسف ، لأننا لا نملك شيئاً مدوناً يروي لنا بصورة تفصيلية أعمال خالد في الصنعة وكيفية اشتغاله للتوصل على رأيه الى صناعة إكسير الذهب ، وهو غاية خالد من كل هذه الصنعة

ثم شيء آخر نستخلصه من ذلك ، هو أن أميراً عربياً كان قد أمر بترجمة الكتب في العلوم وبنقلها من اليونانية الى العربية قبل بدء الترجمة في عهد دولة بني العباس بأمد طويل . وأن حركة التعريب والترجمة كانت قد بدأت في الواقع قبل أيام الدولة العباسية ، ولكن الأيام لم تبق من المعربات شيئاً ، كما أنها قضت على أكثر معالم التأريخ في عهد الأمويين ، وقد يكون ذلك ببواعث سياسية . ومن هنا صار جهلنا بأكثر نواحي تأريخ تلك الأيام .

أما الرجل الثاني الذي يرد اسمه مقروناً بالكيمياء وبعلوم أخرى عديدة أكثرها في الكشف عن الأسرار والمغيبات ، فهو جعفر الصادق الإمام السادس عند أكثر فرق الشيعة المتوفى سنة « ١٤٨ » للهجرة . وهو ابن الإمام محمد الباقر المنسوب اليه كتاب في تفسير القرآن . ذكر ابن النديم أنه رواية أبي الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية الزيدية [1] .

واسم الامام الصادق من أشهر الأئمة الاثنى عشر وروداً في الكتب وفي الحركة العلمية في الاسلام . ورواية الحديث والفقه عند الشيعة اليه ترجع في الغالب وعنده

(١) الفهرست (ص ٥٠) ، تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن » ، المعارف (١١٠) تأريخ كزيدة (٢٠٥) ، روضة الأئمة (١٤٠) ، سفينة الأولياء (٢٥) ، تأريخ الأدب العربي لبروكلمان (٢٠٩/١) .

تثقف . وله عدد كبير من الرواة ، تتلمذوا عليه . وأخذوا العلم منه ، ولهم في الجدل والكلام شهرة ، ولهم بحوث ومؤلفات في علوم أخرى . منهم جابر بن حيّان الذي ذكر ابن خلكان أنه كان من تلامذة جعفر الصادق ، وأن له كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهي خمس مئة رسالة [1] .

وقد رَجَعَ أكثر المشتغلين (في صنعة الكيمياء والسيمياء والجفر والقاّل والجفر وعلم الرمل وعلم الاختلاج [2] وأمثالها من الصناعات القائمة على نظرية هتك الحجب والأستار وكشف المغيبات) علمَهم بالصناعات المذكورة الى الإمام الصادق . فنجدهم يشيرون في رسائلهم اليه ، ويناسبون وقوفه على تلك الأسرار . ونحن لا نكاد نجد في ذلك شخصاً ينافس اسمُهُ اسمَهُ .

وقد وصلت الينا أسماء رسائل وكتب منسوبة الى جعفر الصادق لم يشر اليها ابن النديم ولا غيره من قدماء أهل التأريخ والأخبار . ومن بينها كتاب نشره المستشرق « رسكا » « Julius Ruska » بعنوان « كتاب رسالة جعفر الصادق في علم الصناعة والحجر المكرّم » ، نشره بطريقة « الحفر » ، مشفوعاً بترجمته بالألمانية [3] . وقد افتتحه بعد البسملة بقوله : « رسالة الوصايا والفصول لسيدنا الإمام جعفر الصادق لولده رضي الله عنه » ، مما يدل على أن عنوان الكتاب الأصلي هو هذا العنوان .

(١) وفيات الأعيان (٢/١٧٦ وما بعدها) « طبعة عيسى البابي » .

(٢) « علم الاختلاج : وهو من فروع علم الفراسة . قال المولى أبو الخير : هو علم باحث عن كيفية دلالة اختلاج أعضاء الإنسان من الرأس الى القدم على الأحوال التي ستقع عليه وأحواله ونفسه والغرض منه ظاهر ... » . كشف الظنون (١/١٩٣) ، « اختلاج الأعضاء » ، تأريخ الأدب العربي (١/٢٦٠) ،

Diels. Zur lit. des Gliederzuckens, 1908. S. 58. ff.

(٣) Julius Ruska, Arabische alchemisten, Ga 'far alsadiq der sechste Imam. II, Heidelberg 1924

لكن لغة الكتاب وأسلوب إنشائه وطريقة عرضه تدل على أنه من الكتب المتأخرة، وأن صاحبه ممن عاشوا بعد الصادق بأمد طويل . وفي الكتاب نفسه دليل على تنبيه نسبته الى الصادق ، إذ ورد في الصفحة (١٦) من المخطوطة اسم ذي النون المصري ، ونص ذلك: « وقد كان ذوالنون رحمه الله وقف على هذا التدبير وعمله . لا شك في ذلك . وكان زاهداً عابداً . وكان له تلامذة كثيرة وأتباع من الزهاد والعباد غير قليل . وكان يقوت بأقواتهم ويجزي عليهم مما أفاء الله عليه من هذا العلم » [1] . وكانت وفاة ذي النون في سنة ٢٤٩ للهجرة (٨٦١ م) ، أي بعد وفاة الامام جعفر الصادق بحوالي قرن [2] .

وذكر الحاج خليفة في كشف الظنون كتباً له : هي كتاب تقسيم الرؤيا [3] ، والجامعة في الجفر [4] ، وكتاب في علم الحروف والأسماء دعاه خافية جعفر الصادق [5] ، وآخر في التفسير على طريقة أهل التصوف ، استفاد منه بعض المفسرين مثل أبي العباس بن عطاء الذي قيل انه أخذه عن جعفر [6] . ورسائل لم يذكر عنها شيئاً دعاها رسائل جعفر الصادق [7] .

وقد ذكر بروكلمن كتباً أخرى منسوبة اليه ، مثل كتاب مصباح الشريعة ومفتاح

(١) الصفحة (١٦ وما بعدها) .

(٢) الفهرست (٥٠٣ وما بعدها) ، تاريخ ابن عساكر (٥/٢٧١ وما بعدها) ،
Brockelmann, I, 198, Suppl., I, S. 353.

(٣) كشف الظنون (٢/٣٩١) .

(٤) المصدر نفسه (٢/٥٨١ ، ٦٠٤) ، « كتاب الجفر للامام جعفر الصادق » ، كشف الظنون (٥/٢٠) .

(٥) « خافية في علم الحروف .. والامام جعفر الصادق بن محمد الباقر المتوفى سنة ١١٨ . ذكر البسطامي أنه جعل فيه الباب الكبير » ، كشف الظنون (٢/٥٣ ، ١٢٨) .

(٦) كذلك (٣/٢٩) ، (٦/١٤١) .

(٧) كشف الظنون (٢/٤٠٩) .

الحقيقة ، وكتاب التفسير رواية ذي النون المصري ، ورواية محمد بن ابراهيم بن جعفر النعمان المتوفى سنة (٣٢٨ هـ) من تلامذة الكليني ، وكتاب هياكل النور وتوجد نسخة منه في المكتبة الأهلية بباريس ، وكتاب منافع سور القرآن وتوجد نسخة منه في « كوتا » وأخرى في « الفاتيكان » ، وكتاب بحر الأنساب [١] .

وذكر ابن النديم رسالة دعاها كتاب الهفيلجة ، قال ان بعض الناس ينسبونها الى الامام الصادق ، وهذا محال . وهي رسالة لا يعرف مؤلفها [٢] . وهنالك رسائل وكتب أخرى تنسب اليه ، وهي لا يمكن أن تكون منه .

والحديث عن سيرة جعفر الصادق ، وعن أسماء تلامذته ، ومن أخذ منه ، وعن المؤلفات والأحاديث المنسوبة اليه ، يخرجنا عن صلب موضوعنا هذا ، وهو البحث العلمي عند العرب ، ونحن لا نستطيع أن نتحدث عنه هنا إلاّ بالمقدار الذي تتسع له حدود هذا الموضوع . ولهذا أجتزى بهذا القدر ، وقد أبحث فيه في فرصة أخرى .

ولا بد لي هنا من أن أشير الى إمام آخر من أئمة الشيعة الاثني عشر ، قيل إن له مؤلفاً في العلوم ، هو الامام علي بن موسى الرضا ، معاصر الخليفة المأمون ، والمتوفى بخراسان من إيران المعروفة الآن باسم مشهد . فقد نسب له مؤلف في الطب أسمه الرسالة الذهبية في الطب ، ومنه نسخة في خزانة كتب الأحمدية بتونس كما جاء ذلك في مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية [٣] .

وأما جابر بن حيان ، فانه أبو موسى أو أبو عبد الله كما في بعض المراجع جابر بن

---

(١) Brockelmann, Supp., I, P. 104. ، تأريخ الأدب العربي (١/ ٢٦٠) .

(٢) الفهرست (الصفحة ٤٤١) ، « كتاب الهفيلجة » ، تأريخ الأدب العربي (١/ ٢٦٠) ، بحار الأنوار (٢/ ١٢) .

(٣) مجلة معهد المخطوطات العربية ج ١/ ٢١٦ .

حيان بن عبد الله المعروف بالكوفي وبالصوفي . وهو من الشخصيات الغريبة التي تحدث الناس عنها كثيراً . وقد تحدث عنه ابن النديم فقال : « واختلف الناس في أمره ، فقالت الشيعة إنه من كبارهم وأحد الأبواب ، وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق ، رضي الله عنه ، وكان من أهل الكوفة . وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم وله في المنطق والفلسفة مصنفات ، وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت اليه في عصره وأن أمره كان مكتوماً ، وزعموا أنه كان يتنقل في البلدان لايستقر به بلد خوفاً من السلطان على نفسه . وقيل إنه كان في جملة البرامكة ومنقطعاً اليها ومتحققاً بجعفر ابن يحيى ، فمن زعم هذا قال إنه عنى بسيده جعفر هو البرمكي ، وقالت الشيعة إنما عنى جعفر الصادق ، وحدثني بعض الثقات ممن تعاطى الصنعة أنه كان ينزل في شارع باب الشأم في درب يعرف بدرب الذهب ، وقال لي هذا الرجل : إن جابراً كان أكثر مقامه بالكوفة ، وبها كان يدبر الإكسير لصحة هوائها . ولما أصيب بالكوفة الأرز الذي وجد فيه هاون ذهب فيه نحو مئتي رطل ، ذكر هذا الرجل أن الموضع الذي أصيب ذلك فيه كان دار جابر بن حيان ، فانه لم يصب في ذلك الأرز غير الهاون فقط . وموضع قد بُني للحل والعقد . هذا في أيام عز الدولة بن معز الدولة . وقال لي أبو اسحاق تكين دستاردار ؛ انه هو الذي خرج ليتسلم ذلك ، وقال جماعة من أهل العلم وأكابر الورّاقين : إن هذا الرجل ، يعني جابراً ، لا أصل له ولا حقيقة .

وبعضهم قال إنه ما صنف وان كان له حقيقة إلا كتاب الرحمة ، وإن هذه المصنفات صنفها الناس وحملوه إياها ، وأنا أقول إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة ، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ، ويتعب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره ، إما موجوداً وإما معدوماً ، ضرب من الجهل . وان ذلك لا يستمر على أحد ، ولا يدخل تحته من تحلى بساعة واحدة بالعلم . وأي فائدة في هذا ، وأي عائدة ؟ والرجل له

حقيقة ، وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثر ، ولهذا الرجل كتب في مذاهب الشيعة ، أنا أوردها في مواضعها ، وكتب في معان شتى من العلوم ، وقد ذكرتها في مواضعها من الكتاب . وقد قيل إن أصله من خراسان . والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة : قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان »[1] .

وقد اختلف أهل الأخبار في نسبته ، فنسبه بعضهم الى الأزد ، ونسبه بعضهم الى طوس ، فقال عنه الطوسي ، وجعله بعضهم من طرسوس ، فقال الطرسوسيّ ، وجعله أحدهم من حرّان فقال عنه الحرّاني ، وجعل أصله من الصابئة ، وذكر أنه كان صابئيًا ثم أسلم ، وتزهد وتصوف . كما نسبه بعضهم الى الكوفة ، فقال عنه جابر بن حيّان الكوفي[2] .

ولم يشر أحد الى سنة ولادته . أما سنة وفاته ، فموضع شك . وقد ذكر في بعض الروايات أنها كانت سنة مئتين للهجرة في بعض المراجع[3] . وذكر في رواية أخرى أنها كانت قبلها ، وأنها كانت سنة ١٦٠ هـ[4] . وذكر أنه أخذ العلم عن خالد بن يزيد وعن جعفر الصادق[5] .

وذكر ابن النديم نقلاً عن بعض الثقات ممن تعاطى الصنعة أن جابراً كان أكثر مقامه

(١) الفهرست (ص ٤٩٩ وما بعدها) .

(٢) جابر بن حيان الطرطوسي ؛ « الطرسوسي » المتوفى سنة ٢٠٠ هـ ، كشف الظنون (٥/٣٤) ، كتاب الشذرات الذهبية في تراجم الأئمة الاثني عشر عند الامامية ، تأليف شمس الدين محمد بن طولون ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، (طبع دار صادر / بيروت ١٩٥٨ (الصفحة ٨٥) .

Ency. Of Islam. I, P. 987.

(٣) الأعلام (٥/٩٠) .

(٤) كشف الظنون (٥/٣٤ ، ٢٩ ، ومواضع أخرى) .

(٥) « جابر بن حيان الصوفي من تلامذة خالد » ، كشف الظنون (٥/٢٤٠) .

Ency. Of Islam, I, P. 987

بالكوفة ، وأنه كان ينزل في شارع باب الشام في درب يعرف بدرب الذهب ، « وبها كان يدبر الاكسير لصحة هوائها ، ولما أصيب بالكوفة الأزج الذي وجد فيه هاون ذهب فيه نحو مئتي رطل ، ذكر هذا الرجل أن الموضع الذي أصيب فيه ذلك كان دار جابر بن حيّان ، فانه لم يصب في ذلك الأزج غير الهاون فقط ، وموضع قد بني للحل والعقد ، هذا في أيام عزالدولة بن معز الدولة . وقال لي ابو اسحٰق دستاردار : أنه هو الذي خرج ليتسلم ذلك »[1] .

ومعارفنا عن جابر جدّ قليلة ومشوشة . وليس هذا شأننا وحدنا في القرن العشرين ، بل هو كذلك شأن من تقدم علينا بمئات من السنين . وقد أوردت ذلك نص ما كتبه ابن النديم عنه ، وما ذكره من شك بعض المعاصرين لابن النديم ، وبعض المتقدمين عليه في وجود جابر ، وفي صحة نسبة تلك الرسائل والكتب اليه ما ذكره منها وما لم يذكره ، وكيف أنه خالفهم في ذلك وسفه رأيهم في انكار وجود ذلك الرجل . واذا كان هذا حال الناس في أمر جابر في ذلك العهد ، فكيف يكون حالنا ونحن اليوم في القرن العشرين ؟

أما التقاء جابر بخالد بن يزيد ، فذلك أمر لايمكن وقوعه ، فقد كان جابر من المنقطعين للبرامكة ومن المتصلين بهم ولا سيما جعفر بن يحيى البرمكي . وقد ألف جملة مؤلفات لهم ، رسمها باسمهم ، وقد توفي خالد بن يزيد حوالي سنة أربع وثمانين للهجرة في أكثر الروايات . وفي سنة تسعين للهجرة في أبعد الروايات [2] . وقد اشتهر أمر البرامكة في أيام الرشيد ، فلو فرضنا أن عمر جابر كان قد بلغ المئة عام ، وأنه أدرك أيام خالد بن يزيد بالفعل ، فيجب أن يكون طفلاً عند ذاك ، ولا يعقل لطفل أخذه العلم عن خالد وهو في هذا العمر .

وأما اتصاله بجعفر الصادق وأخذه العلم منه ، ففي الكتب المنسوبة الى جابر اشارات

(١) الفهرست (ص ٤٩٦) .

(٢) الأعلام (٢/٣٠٢)

عديدة الى ذلك . وقد ذكر ذلك أيضاً كثير من المؤرخين من الشيعة ومن غيرهم . وعدّ المشتغلون بالصنعة وهواة الكيمياء والطلسمات والعلوم السرّية جابر الحلقة الموصلة بين رجال هذه العلوم وجعفر الصادق الذي يعدّ المرجع الأكبر والأهم فيها . فاذا ذكروه قالوا عن جابر عن جعفر الصادق أو جابر تلميذ جعفر الصادق . وهو في هذه الشهرة اشهر تلميذ من التلاميذ المنسوبين الى الامام [1] .

ومن أمثلة الإشارات الى جعفر الصادق الواردة في الكتب المنسوبة الى جابر ، والتي تؤكد معاصرته له ولرجلين آخرين أخذ جابر العلم عنهما ، هذه العبارات في « كتاب أسطقمن الأس الثالث » ، وهي « ... ولكن لو كان يتفق له أن يكون في زمان مثل زماننا ، فيخرج له من الفضلاء مثل من خرج في زماننا نحن مثل سيّدي جعفر بن محمد ومثل معلمي حربي واذن الحمار المنطقي ... [2] » . وهذه العبارة في : « كتاب الرحمة الصغير » : « قال جابر ابن حيّان : قال لي سيّدي جعفر : يا جابر : فقلت : لبّيك يا سيدي . فقال : هذه الكتب التي صنفتها جميعها وذكرت فيها الصنعة وفصلتها فصولاً وذكرت فيها من المذاهب وآراء الناس ، وذكرت الأبواب وخصصت كل كتاب منها بعمل ... [3] » . والعبارة الواردة في : « كتاب المقابلة والمماثلة » ، وهي : « اني لما صنفت كتابنا المقابلة التي يكفي به (؟) وفسرت فيه الكتابين وذكر الأخرة والأحبار (؟) الأربعة الذين ذكرتهم فيه ،

(١) « وله » أي جعفر الصادق « كلام في صناعة الكيمياء والزجر والفأل . وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي . وقد صنف كتاباً يشتمل على الف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق . وهي خمس مئة رسالة » ، الشذرات الذهبية (ص ٨٠) .

(٢) مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان الصوفي (باريس ١٩٢٨) (ص ١٠٠) .

(٣) المصدر نفسه (ص ١٤٧) .

عرضته على سيدي جعفر بن محمد عليه السلام ، فقال له (؟) : إقرأه علي ... [1] » ... وغير ذلك من مواضع .

وقد أفادتنا العبارات الواردة في « كتاب اسطقس الأس الثالث » فائدة كبيرة لذكرها اسمي « حربي » و « اذن الحمار المنطق » في جملة الرجال الذين أخذ جابر العلم منهم . أما حربي فقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم . ذكره مرة في المقالة العاشرة المحتوية أسماء الكيميائيين والصنعويين من القدماء والمحدثين . ذكره بعد خالد بن يزيد واصطفن وقبل اسم جابر بن حيان ، وذكره مرة أخرى في تعداد أسماء مؤلفات جابر ، وفي أثناء كلامه على المصححات التي ألفها جابر في تصحيح آراء ومقالات غيره من المتقدمين عليه والمعاصرين له . فذكر أن لجابر تصحيحاً لآراء حربي سماه كتاب مصححات حربي [2] .

وتفيدنا أسماء بعض المؤلفات التي عزاها ابن النديم لجابر وبعض الأسماء التي وردت في فهرس ابن النديم ولها علاقة بجابر فائدة كبيرة في تعيين الزمن الذي عاش فيه جابر ، وفي تشخيص رسائله وتثبيت حقيقتها . والرسائل التي عزاها ابن النديم اليه وتفيدنا في هذا الباب ، هي : كتاب الى جمهور الفرنجي ، وكتاب الى علي بن يقطين ، وكتاب الى علي بن اسحاق البرمكي ، وكتاب تلوين الحجارة الى منصور بن احمد البرمكي ، وكتاب أغراض الصنعة الى جعفر بن يحيى البرمكي [3] .

وأشهر هؤلاء المذكورين وأعرفهم ، هو : جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، وزير

---

(١) A. Siggel, Katalog der Arabischen alchemistischen Handschriften Deutschlands, Berlin, 1949, S. 15.

وفي النص العربي للقبس اغلاط كثيرة نحوية وصرفية وإملائية لا يمكن وقوعها من رجل معروف مثل جابر ، ولا من أي مؤلف آخر عاش في ذلك العهد . وهي من أغلاط النساخ ولا شك .

(٢) الفهرست (ص ٥٠٢) .

(٣) الفهرست (ص ٥٠١) .

الرشيد الشهير ، والمقتول بأمره سنة ١٨٧ للهجرة [١] . وقد كان جابر من المتصلين به والمنقطعين اليه ، كما ذكر ذلك ابن النديم ، قال : « كان في جملة البرامكة ومنقطعاً اليها ، ومتحققاً بجعفر بن يحيى ، فمن زعم هذا قال إنه عنى بسيده جعفر هو البرمكي . وقالت الشيعة إنما عنى جعفر الصادق [٢] » .

وكان يحيى بن خالد البرمكي « ١٩٠ هـ » ، والد جعفر نفسه من المشتغلين بالعلوم ، كما كان من الأدباء أصحاب الأسلوب . وقد ذكره ابن النديم في جماعة الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة ، وجعله في جملة المؤلفين ، ولكن لم يورد له مؤلفاً . وقد أمر بتعريب عدد من المؤلفات المدونة بالهندية واليونانية والفارسية . وذكر ابن النديم بينها كتاب المجسطي ، فقال : « وأول من عنى بتفسيره واخراجه الى العربية يحيى بن خالد بن برمك ، ففسره له جماعة ، فلم يتقنوه ، ولم يرض بذلك ، فندب لتفسيره أبا حسان وسلماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجوّدين [٤] ». وذكر ابن النديم كتاباً في العطر قال إنه ألف ليحيى بن خالد [٥] .

وأما علي بن يقطين ، فكان من رجال الشيعة المنقطعين الى الامام جعفر الصادق ، ومن المؤلفين والمتولين لبعض الوظائف في عهد المنصور والمهدي . وكان ممن يوالون جعفر الصادق ويؤيدونه ويحملون اليه الأموال ، وهذا ما عرضه الى غضب الدولة والى الشك في اخلاصه للعباسيين . وقد ولد سنة « ١٢٤ هـ » وتوفي سنة (١٨٢ هـ) . وكان والده

(١) الطبري (حوادث السنة ١٨٧) ، ابن خلكان (١/١٠٠) ، البداية والنهاية (١٠/١٨٩ ، ١٩٤) .

(٢) الفهرست (ص ٤٩٩) .

(٣) الفهرست (ص ٤٩٢) .

(٤) الفهرست (ص ٣٧٤) .

(٥) ص ٤٠١ .

« يقطين » من وجود الدعاة ضد الأمويين . وقد طلبه مروان فهرب ، ولم يظهر إلا عند ظهور دولة بني العباس ، فتوظف في دولتهم ، ولكنه كان كابنه يرى الإمامة في آل أبي طالب ، ويعتقد برأيهم ، وقد توفي سنة (١٨٥ هـ) أي بعد وفاة ولده علي . وقد نسب ابن النديم لعلي بن يقطين كتابين : أحدهما كتاب ما سـأل عنه الصادق من أمور الملاحم ، والآخر كتاب مناظرته للشاك بحضرة جعفر [١] .

وأود ، والكلام على صلة جابر بالبرامكة ، أن أشير الى شطحة بسيطة فيما أرى ، بدت من السيد اسماعيل مظهر في أثناء كلامه على جابر قد تورد من يقرأ مقاله في الخطأ ، فأحببت تصحيحها ، وهي قوله : « وكان صديقاً للبرامكة وزراء هارون الرشيد ، وانه عاش ردحاً من الزمان في بلاط بغداد [٢] » ، وقوله : « وانه اضطر الى الإفضاء ببعض أسرار الصناعة (أي الكيمياء) الى هارون الرشيد ... » ، وقوله : « وكل ما يهمنا في هذه الرواية أن المعروف على رواية ابن النديم أنه توفي سنة ١٦٠ هـ » [٣] . وحجى خليفة أنه توفي سنة ١٦٠ هـ (٧٧٦ — ٧٧٧ م) ، ولكن اذا صحت رواية الجلدكي ، فلا بد من أن يكون جابر قد عاش بعد هذا العهد بزمان طويل [٤] » .

وفي تعبير السيد اسماعيل مظهر : « وانه عاش ردحاً من الزمان في بلاط هارون الرشيد » وهم يفهم القارىء منه أن جابر بن حيان كان نازلاً في قصر هارون الرشيد وفي بلاطه ، وانه كان على صلة وثيقة به ؛ وأنه أعطاه سرّ الصنعة . وهو كلام لم يقله أحد ، ولم يروه راوٍ من المتقدمين . ثم إن كون جابر من المتعلقين بالبرامكة المراجعين لهم والمنقطعين اليهم ، لايحتم كونه من المراجعين لهارون الرشيد والمنقطعين اليه ، فقد كان بعض الناس

(١) الفهرست (ص ٣١٤) .

(٢) تاريخ الفكر العربي ، (القاهرة ١٩٢٨) . (ص ٧٢) .

(٣) المصدر نفسه ، (ص ٧٤) .

(٤) كذلك ، (ص ٧١) . وفي النص « الجلدقي » . والصحيح الجلدكي

من المراجعين لهم ، ولكنهم لم يكونوا من المنقطعين الى الخليفة . ثم إنه رجل عالم ، وقد كان العلماء يضطرون الى الاتصال بأصحاب الجاه والنفوذ للحصول على مساعدتهم ومؤازرتهم ويؤلفون لهم ويذكرونهم في كتبهم رجاء مؤازرتهم ومساعدتهم في هذه الحياة . وذلك لا يعني أنه عاش في قصر ذلك العظيم ، وانه قضى ردحاً من الزمن فيه ، وأنه علمه علمه ، وأفضى اليه بسر الصنعة إن كان للصنعة سر .

ويظهر مما ذكره ابن النديم عن جابر من أن أكثر مقام جابر كان بالكوفة ومن نعته بعض من ترجمه له بالكوفي أن جابراً كان قد أقام أمداً في الكوفة ، وأنه اشتغل بها في الكيمياء ومارس حرفته بها ، خاصة وأن ابن النديم قد نص على اسم المكان الذي اشتغل فيه جابر بالصنعة وأجرى تجاربه فيه بأجهزته ومعادنه لتحويل تلك المعادن الى الإكسير . أما اختفاؤه وتنقله في البلدان خوفاً من السلطان على نفسه ، كما ذكر ذلك ابن النديم ، فنحن لا ندري سبب ذلك ، ولم يشرح من كتب عنه من القدماء ذلك أيضاً ، ولم يشيروا الى اسم السلطان الذي كان يتعقبه وكان جابر يخشى منه ، هل هو المنصور أو المهدي أو الهادي أو الرشيد ؟ ولم كان ذلك ؟ ألأنه كان من الميالين الى العلويين الداعين الى امامتهم ؟ أم لأنه كان من الموالين للبرامكة فغضب عليه الرشيد وأمر بالقبض عليه ، أم لأنه كان يدعي الصنعة والوقوف على أسرارها ، وتمكنه من تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب ، فهو لذلك خائف من السلطان . وقد كان العلماء وأصحاب الجاه يتعقبون أمثال هؤلاء ، لما لذلك من أثر في السياسة العامة وفي عقول الخاصة والرأي العام .

وقد أشار ابن النديم الى ثلاثة أشخاص ذكر أنهم كانوا من تلامذة جابر بن حيان ، هم : الحرقي ، وابن عياض المصري ، والإخميمي . أما الحرقي ، فكل ما ذكر عنه ابن النديم أنه ينسب الى سكة الحرقي [1] .

(١) الفهرست (ص ٥٠٠) .

وأما ابن عياض المصرى ، فلم يذكر ابن النديم من خبره ومن مؤلفاته شيئاً [1] . وقد أشار اليه في موضع آخر ، في أثناء كلامه على أبي العباس أحمد بن محمد بن سليمان ، من الرجال المشتغلين في صناعة الكيمياء كذلك . وقد ذكر له كتاب الافصاح والايضاح في برّانيات ، وكتاب الجامع برّانيات ، وكتاب الملاغم ، وكتاب المعجونات ، وكتاب التخمير . ثم قال : « ويقال إن كتاب الافصاح والإيضاح لابن عياض المصري تليذ جابر » [2] .

وأما الاخميمي ، فإنه عثمان بن سويد أبو حرى الاخميمي ، من اخميم بمصر . وقد كان من المعروفين باشتغاله في صناعة الكيمياء ، وكان من المعاصرين لابن وحشية ، وله معه مناظرات ومكاتبات . وقد ذكر ابن النديم هذه الكتب له : كتاب الكبريت الأحمر ، وكتاب الإبانة ، وكتاب التصحيحات ، وكتاب صرف التوهم عن ذى النون المصري ، وكتاب آلات القدماء ، وكتاب الحل والعقد ، وكتاب التدبير ، وكتاب التصعيد والتقطير ، وكتاب الجحيم الأعظم ، وكتاب مناظرات العلماء ومفاوضاتهم [3] .

وهنالك رجل آخر لم يشر اليه ابن النديم في جملة من أخذ العلم عن جابر ، هو : يحيى بن أحمد بكر البرمكي . وقد ذكره بروكلمن استناداً الى ما جاء في مقدمة كتابه المسمى : « سراج الظلمة والرحمة في معرفة جوهر وروح وموازين وتدابير ؟ » [4]

وقد نشر المستشرق « الفريد سيكل Alfred Siggel » كتاباً من الكتب المنسوبة الى جابر حيّان ، عنوانه « كتاب السموم ودفع مضارها » ، نشر نصه العربي بطريقة

---

(١) الفهرست (ص ٥٠٠) .

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٠٦) .

(٣) الفهرست (ص ٥٠٨) .

(٤) Brockelmann, Suppl., H, S. 249.

التصوير مشفوعة بترجمة ألمانية ، ومقدمة مختصرة صغيرة في جابر بن حيّان وفي النسخ العربية التي استفاد منها في ترجمته هذه ومظانها وأماكن وجودها [1] .

وهذا الكتاب في السموم وخواصها وأصنافها وكيفية استخراجها . وقد أخذ مؤلفه علمه بها من علم العلماء اليونان المتقدمين ، أمثال «هبوقراط Hippokrates» و« جالينوس» « Galen » و« اندروماخس Andromachus » وبعض الفلاسفة أمثال أرسطو وأفلاطون، ومن موارد فارسية ، بدليل ورود أسماء عقاقير عرفت عند الفرس ونباتات فارسية . والغريب أنه أهمل اسم « ديسقوريدس Dioskurides » مع أنه من أشهر علماء اليونان في الصيدلة وتركيب الأدوية والسموم ، وهو نفسه صاحب مؤلف في السموم [2] .

وقد ذكر المؤلف بعض الأدوية وقال إنه أشار اليها في مؤلفين له ، هما : كتاب الطب الكبير ، وكتاب في الأدوية المفردة [3] .

ولم ينص ابن النديم الذي ذكر أسماء أكثر كتب جابر بن حيان على هذين الكتابين بالاسم ، ولكنه ذكر أنه ألف كتاباً عظيماً في الطب . وألف كتباً صغاراً وكباراً نحواً من خمس مئة كتاب في هذا الموضوع كذلك [4] . وقد سبق للمؤلف نفسه أن دعا كتابه في الصفحات الأولى المتقدمة بـ «الكتاب الكبير في الطب » [5] ، وهو يقصد ذلك الكتاب ولا شك .

وذكر مؤلف السموم اسم مؤلف آخر له سماه « كتاب المزاج » وأشار الى أن له

(١) راجع عنه ، المجلد الخامس من الجزء الثاني من مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية (الصفحة ٢٨٦) ، Brockelmann, Suppl., I, S. 225

(٢) Siggel, S. 5.

(٣) راجع (ص ١٩٢ ب) .

(٤) الفهرست (ص ٥٠٣) .

(٥) (ص ٩٩) من النص العربي و ص ١٧ من الترجمة الألمانية) .

مؤلفات عديدة أخرى [1] . ثم ذكر اسم كتابين آخرين له ، هما : كتاب الفلسفة ، وكتاب الخواص [2] . كما ذكر كتاباً آخر أسمه كتاب الحيوان [3] ، وكتاباً آخر في النبات سماه كتاب النبات [4] ، وذكر أنه ألف كتاباً في الموازين ليرجع اليه الباحثون في تركيب الأدوية ، وقد سماه « كتب الموازين » [5] ، وكتاباً آخر باسم كتاب الضمير [6] .

هذا وقد أشار في متن هذا الكتاب الى كتب أخرى ذكر أنه ألفها ، منها : كتاب النواميس ، وكتاب الرد على افلاطون ، وكتب الموازين المئة والأربعة والأربعين [7] ، وكتب الحيل الحربية والمكايد [8] ، وكتاب الحشائش وكتاب الحجارة [9] .

ويساعدنا فهرست ابن النديم مساعدة كبيرة في تعيين هذه الكتب ، ففيه جريدة طويلة بأسماء كتب منسوبة الى جابر بن حيان ، وفي ضمنها أكثر الكتب المذكورة ، مثل : كتاب الخواص ، وكتاب الحيوان ، وكتاب النبات [10] ، أما الكتاب الذي سماه « كتب الموازين الأربعة والأربعين » ، فلم يرد بهذا الاسم في الفهرست ، لكننا نجد في هذه الجريدة كتابين لهما علاقة به ، هما : كتاب الميزان ، وكتاب الموازين [11] . فلعلّهما

(١) « س a 7 » من النص العربي والصفحات ١٠ و (٤٤) من الترجمة الألمانية .

(٢) (س a 53 من النص العربي و س 42 من الترجمة الألمانية) .

(٣) (وأوضحنا ذلك في كتاب الحيوان ، س a 42 من النص العربي) .

(٤) « الصفحة b 52 من النص العربي » .

(٥) الصفحة a 58 من النص العربي و 69 من الترجمة الألمانية .

(٦) الصفحة b 132 من النص العربي و 140 من الترجمة الألمانية .

(٧) س b 134 من النص العربي ، س 142 من النص الألماني .

(٨) س b 36 من النص العربي ، س 144 من النص الألماني .

(٩) س a 115 و 115 من النص العربي ، س 123 من الترجمة الألمانية .

(١٠) الفهرست (ص ٥٠٠ وما بعدها) .

(١١) المصدر نفسه .

هذا الكتاب ، أو لعل أحدهما هو الكتاب المذكور .

أما كتاب الحجارة ، فلا نجد له ذكراً بهذا الاسم في « الفهرست » ، لكننا نجد فيه أسمي كتابين ذكرهما ، قد تكون لهما علاقة بهذا الموضوع ، هما : كتاب الأحجار ، وكتاب الأحجار الثاني ، ثم نجد استطراداً ورد بعد ذلك ، قد تكون له علاقة بهذا الكتاب ، هذا نصه : « ... ثم يتلو ذلك رسائل في الحجر : أولى ، ثانية ، ثالثة ، رابعة ، خامسة ، سادسة ، سابعة ، ثامنة ، تاسعة ، عاشرة ، ولا أسماء لها . وله بعد ذلك عشر رسائل في النبات : أولى الى العاشرة ، وله في الأحجار عشر رسائل على هذا المثال . فذلك سبعون رسالة »[1] .

ويظهر من كلام صاحب الفهرست أن ما سمّاه بـ « رسائل في الحجر » ، وهي عشر رسائل ، هو الشيء الذي قال عنه نفسه بعد كلمات ، قال : « وله في الأحجار عشر رسائل على هذا المثال » ، وأن الشيئين المذكورين هما شيء واحد ، وهو كتاب يتضمن عشر رسائل عن الأحجار ، وأن هذه الرسائل هي قوام كتاب الحجارة المذكور في كتاب السموم .

وأما أسماء كتاب النواميس وكتاب الرد على أفلاطون وكتاب الحيل الحربية والمكايد وكتاب الحشائش ، فلم ترد في هذه الجريدة . ولست أستبعد وقوف « ابن النديم » عليها وذكره لها في هذه الجريدة ، ولكن باسم آخر وبعنوان يختلف عن هذا العنوان الذي ذكره المؤلف في كتابه في السموم . ففي «الفهرست» اسم كتاب دعاه « كتاب مصححات فلاطون » ، في جملة كتب نسبها الى المؤلف دعاها مصححات . هي : « كتاب مصححات فيثاغورس ، كتاب مصححات سقراط ، كتاب مصححات فلاطون ، كتاب مصححات

---

(١) الفهرست (ص ٥٠٢) .

أرسطوطاليس ، كتاب مصححات أرسنجانس ، كتاب مصححات أركاغانيس ، كتاب مصححات أمورس ، كتاب مصححات ديمقراطيس ، كتاب مصححات حربي ، كتاب مصححاتنا نحن »[1] ، ويقصد بذلك تصحيحات آراء وأفكار هي أوهام وأغلاط في نظر المؤلف . فلعله قصد بـ « كتاب مصححات فلاطون » هذا الكتاب الذي ذكره المؤلف نفسه وسماه « كتاب في الردّ على أفلاطون » .

وقد أفادنا مؤلف كتاب السموم فائدة كبيرة بذكر أسماء هذه المؤلفات وبالنص عليها ، كما أفادنا في تكوين رأي فيه وفي البحوث والموضوعات التي اشتغل بها وبحث فيها . ويظهر من هذا المذكور أنه كان واسع الاطلاع ، ذا علم بالعلوم ، وأنه على طريقة ذلك العهد وأسلوب الموسوعيين شغل نفسه وألف في معظم بحوث المعرفة الإنسانية ، وأنه كان نشيطاً جداً كما يظهر ذلك من أسماء هذه الكتب ، ومن أسماء كتب أخرى منسوبة اليه .

ومما يلاحظ على هذا الكتاب أنه خلو من ذكر اسم الإمام جعفر الصادق . وقد جرت عادة المؤلف ذكره في كتب الصنعة والكيمياء ، كما جرت عادة المشتغلين بالصنعة وبالكيمياء ذكره أيضاً باعتباره من المؤسسين للموضوعين ومن الواقفين على السرّ فيهما ، وأنه أخذ هذا السرّ من آبائه عن علي بن أبي طالب عن الرسول .

ولم يذكر ابن النديم اسم هذا الكتاب الذي أتحدث عنه : « كتاب السموم ودفع مضارها » ، مع أنه ذكر في جريدته المذكورة أسماء أكثر كتب جابر بن حيّان . وقد أخذها كما يقول عن فهرست كبير ، زعم أنه له ، أي لجابر بن حيّان ، دوّن فيه جميع ما ألف في الصنعة وغيرها ، وفهرست آخر صغير يحتوي على ما ألف في الصنعة فقط . ثم لم يكتف — كما يقول ابن النديم — بذلك ، بل ذكر جملاً من كتبه رآها « وشاهدها

(١) الفهرست (ص ٥٠٢)

الثقات فذكروها » له [1] . كما أورد بعض العبارات التي تدل على نقله من ذلك الفهرست ، كقوله : « قال محمد بن اسحاق ، قال جابر في كتاب فهرسته : ألفت بعد هذه الكتب ثلاثين رسالة لا أسماء لها ، ثم ألفت بعد ذلك أربع مقالات وهي ... » وقوله : « قال أبو موسى : ألفت ثلاث مئة كتاب في الفلسفة ..... » [2] .

ولم يشر ابن النديم الى هذا الكتاب كذلك في أثناء كلامه على الكتب المؤلفة في السموم ، مع أنه ذكر كتباً فيها مثل كتاب السمومات لابن البطريق ، وكتاب السمومات لابقراط ، وكتاب السمومات ودفع ضررها للكندي ، وكتاب السمومات ودفع مضارها لقسطا بن لوقا ، وقد ذكر كتاباً دعاه : كتاب السمومات وتركيبها وأصولها ، لكنه لم يذكر اسم مؤلفه ، وكل ما ذكره عنه أنه يقع في نحو خمسين ورقة [3] .

هذا ولا بد لي من التنويه هنا بأهمية الموازنة بين هذا الكتاب والكتب العربية الأخرى الواردة في السموم . ولكتب السموم منزلة كبيرة في البحوث العلمية عند العرب وعند القدماء عموماً . وقد ألف اليونان والهنود والفرس فيها كتباً ، نقلت بعضها الى العربية . وقد اعتنى بها رجال السياسة في ذلك العهد عناية خاصة ، وكانوا يستدعون العلماء المشتغلين بالسموم اليهم ، ويطلبون منهم التأليف فيها والبحث في ايجاد سموم جديدة وفي إبطال مفعول السموم ، إذ كان السم في ذلك العهد من أهم الأسلحة الفتاكة التي تستعمل في القضاء على الخصوم والأعداء ، وفي التخلص من المواقف المحرجة ، كسلاح في أيدي عدو يعلم أنه سيقضي عليه حتماً ، وسيمثل به شر تمثيل ، ويتفنن في تعذيبه قبل أن يلحقه بالعالم الثاني ، تشفياً منه ، وتنفيساً لعواطف الثيمة التي تستولي على بعض النفوس .

(١) الفهرست (ص ٥٠٠) .

(٢) الفهرست (ص ٥٠٢ وما بعدها) .

(٣) الفهرست (ص ٥١١) .

وهناك آلاف من الضحايا السياسيين ، قضي عليهم بدس السم لهم في طعامهم أو شرابهم من حيث لا يعلمون .

هذا وقد نشر أحد المستشرقين ، وهو « أرگ يحيي هولميارد Eric John Holmyard » في سنة ١٩٢٨ م مجموعة من المصنفات المنسوبة الى « جابر » في الكيمياء تحتوي على رسائل يقع بعضها في جملة أوراق ، نشرت في كتاب واحد بهذه العناوين : كتاب البيان ، وكتاب الحجر ، وكتاب النور ، وكتاب الايضاح ، وكتاب أسطقس الأس الأول على رأي الفلاسفة ، وكتاب أسطقس الأس الثاني ، وكتاب أسطقس الأس الثالث ، وكتاب تفسير الأسطقس ، وكتاب التجريد ، وكتاب المنفعة ، وكتاب الرحمة الصغير ، وكتاب الملك [1] .

وكتاب البيان ، هو ثماني صفحات من صفحات هذا الكتاب الحاوي على الرسائل المذكورة . وقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم [2] . وكتاب الحجر ٢٨ صفحة . وكتاب النور ثلاث صفحات ، وكتاب الايضاح ثماني صفحات ، وكتاب أسطقس الأس الأول ، ست عشرة صفحة ، وكتاب أسطقس الأس الثاني ، ثماني عشرة صفحة . فأما كتاب أسطقس الأس الثالث ، أربع عشرة صفحة ، وكتاب الأسطقس عشر صفحات ، وكتاب التجريد ست عشرة صفحة ، وكتاب المنفعة صفحتان ، وكتاب الرحمة الصغير احدى عشرة صفحة ، وكتاب الملك اثنتا عشرة صفحة .

ونرى من هذا التعداد أن ما قيل له كتاب ، هو في الواقع رسالة ، وأن تلك الكتب هي رسائل بعضها رسائل صغيرة ، لو أعيد طبعها لكانت في حدود صفحة واحدة ليس غير . وقد جمعها أرگ يحيي هولميارد هذا ، وطبعها كلها في نحو (١٧٢) صفحة . وهي لو

---

(١) طبعت بمدينة (باريس) بمطبعة « Paul Geuthner »

(٢) ص ٥٠٠ .

طبعت من غير فراغات لجاءت أقل من هذا العدد بكثير .

وقد ورد في هذه الرسائل أسماء مؤلفات أخرى للمؤلف أحال القارىء عليها ، ويظهر أن من أسلوبه في مؤلفاته الإشارة الى أسماء كتبه ، ليحيل القارىء عليها عند بحثه في موضوع قد يصعب فهمه عليه . وقد أفادنا بالطبع في طريقته هذه ، إذ أرشدنا الى بعض مؤلفاته ، ومكننا من الوقوف عليها ومن رجوعنا الى فهرست ابن النديم لمقارنتها بأسماء الكتب الواردة في هذا الفهرست على أنها من كتب جابر بن حيّان .

ومن هذه الكتب التي وردت أسماؤها في هذه الرسائل : كتاب الحيوان ، وكتاب الحجر ، وكتاب النباتات [١] ، وكتاب الامامة [٢] وكتاب السبعين [٣] ، وكتاب الماء وتولد الجنين [٤] ، وكتاب المئة وأربعة وأربعين [٥] ، وكتاب الرحمة [٦] ، وكتاب الذكر والأنثى [٧] ، وكتاب المني [٨] ، وكتاب الحجائر ، وكتاب الكمال [٩] ، وكتاب التدابير في الحجائر [١٠] ، وكتاب غرض الأغراض [١١] ، وكتاب النظم ، وكتاب الملك من الخمس مئة ، وكتاب صفة الكون [١٢] ، وكتاب المفرد [١٣] ، وكتاب الاثنين والثلاثين [١٤] .

(١) هوليارد : مصنفات في علم الكيمياء (ص ١٢) .
(٢) المصدر نفسه (ص ٢٢) .
(٣) كذلك (ص ٢٤ ، ١١٩) .
(٤) كذلك (ص ٣٢) .
(٥) كذلك (ص ٣٦) .
(٦) المصدر نفسه (ص ٤٠) .
(٧) كذلك (٨٤) .
(٨) كذلك (ص ٨٠) .
(٩) » (ص ١٠٤) .
(١٠) » (ص ١٠٨) .
(١١) » (ص ١١٧) .
(١٢) » (ص ١١٩) .
(١٣) » (ص ١٥٥) .
(١٤) » (ص ١٦٠) .

أما كتاب الحيوان ، فقد ورد اسمه في كتاب السموم ، وذكره ابن النديم كما قلت . وأما كتاب الحجر ، فيظهر أنه الكتاب الذي ورد ذكره في كتاب السموم باسم كتاب الحجارة الذي تحدثت عنه من قبل . وأما كتاب النبات ، فقد تحدثت عنه كذلك ، وقد ورد اسمه في كتاب السموم . وأما كتاب الامامة ، فلم يرد له ذكر في كتاب السموم ولا في فهرست ابن النديم ، ولم يشر اليه « بروكلمن » كذلك [1] . وأما كتاب السبعين ، فالظاهر أنه كان رسائل يبلغ عددها سبعين رسالة ، أطلق على كل رسالة منها عنوان : كتاب ، ويفهم ذلك صراحة من هذه الجمل الواردة في فهرست ابن النديم : « وله بعد ذلك سبعون كتاباً ، منها : كتاب اللاهوت ، كتاب الباب ، كتاب الثلاثين كلمة ، كتاب المني ، كتاب الهدى ، كتاب الصفات ، كتاب العشرة ، كتاب النعوت ، كتاب العهد ، كتاب السبعة ، كتاب الحي ، كتاب الحكيمة ، كتاب البلاغة ، كتاب المشاكلة ، كتاب خمسة عشر ، كتاب الكفؤ ، كتاب الاحاطة ، كتاب الراوق ، كتاب القبة ، كتاب الضبط ، كتاب الاشجار ، كتاب المواهب ، كتاب المخنقة ، كتاب الاكليل ، كتاب الخلاص ، كتاب الوجيه ، كتاب الرغبة ، كتاب الخلقة ، كتاب الهيأة ، كتاب الروضة ، كتاب النافع ، كتاب النقد ، كتاب الطاهر ، كتاب ليلة ، كتاب المنافع ، كتاب اللعبة ، كتاب المصادر ، كتاب الجمع . فهذه أربعون كتاباً من السبعين كتاباً . ثم يتلو ذلك رسائل في الحجر : أولى ، ثانية ، ثالثة ، رابعة ، خامسة ، سادسة ، سابعة ، ثامنة ، تاسعة ، عاشرة ، ولا أسماء لها . وله بعد ذلك عشر رسائل في النبات : أولى الى العاشرة . وله في الاحجار عشر رسائل على هذا المثال . فذلك سبعون رسالة . » [2] . وقد أشار الحاج خليفة في كشف الظنون

(١) Brockelmann, Suppl., I, S. 427. ff.

(٢) الفهرست (ص ٥٠١ وما بعدها) .

الى كتاب لجابر سماه « كتاب السبعين في الصنعة » [1] ، والظاهر أنه يقصد هذه الرسائل السبعين .

وأما كتاب « الباه وتولد الجنين » ، فلم يرد له ذكر في فهرست ابن النديم ولا لدى « بروكلمن » . وهو كما يظهر من عنوانه ومن ورود اسمه في موضوع طبي حيواني ، في النطفة وفي تولد الجنين وفي الفرق بين الطبيعتين ، طبيعة الرجل وطبيعة الأنثى [2] .

وأما كتاب « المائة وأربعة وأربعين » ، فالظاهر أنه على نمط كتاب السبعين ، مجموعة رسائل وأبواب دعيت كل رسالة بكتاب ، يبلغ مجموعها (١٤٤) رسالة . ولكل رسالة عنوان قائم بذاته . وتكون كلها مجموعة تبحث في « الطعوم » ، وذلك كما يظهر من عبارة المؤلف في « كتاب الحجر » حيث يقول : « وقد توسعنا في ذكرها في سائر كتبنا . فخذ الألوان من السبعين ، والأرايح من كتبنا في الكيفيات ، والطعوم من كتبنا من المئة وأربعة وأربعين خاصة . فإنا قد استقصينا كلاً من ذلك بحسب طبقته في موضعه الخاص به من كتبنا » [3] . ولم أجد في الفهرست اشارة الى هذا الكتاب ، أو مجموعة تدعى : المئة وأربعة وأربعين .

وأما كتاب المني ، فقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم [4] . وأما كتاب الخمائر ، فلم يذكره ابن النديم بهذا العنوان ، بل ذكر ثلاثة كتب في عنوانها لفظة واحدة زائدة على هذا العنوان ، هي : كتاب الخمائر الكبير ، وكتاب الخمائر الصغير ، وكتاب فضلات الخمائر [5] . فلا أدري أي كتاب من هذه الكتب الثلاثة قد يكون ذلك الكتاب المذكور .

(١) كشف الظنون (٥/٩٣) .

(٢) « وتكلمنا في كتبنا الطبيعية والطبيعة وفي كتاب الباه وتولد الجنين . وقلنا : إن الأنثى أرطب مزاجاً من الذكر ، وإن الذكر أكثر حرارة ويبساً من الانثى . . » (ص ٣٢) من هولياره .

(٣) هولياره (ص ٣٦) .

(٤) (ص ٥٠١) .

(٥) ص ٥٠٠ وما بعدها

ويفهم من فهرست ابن النديم أن صاحب كتاب الخمائر كان قد ألف كتاباً مطولاً في الخمائر، ثم عاد فاختصره وعنونه بـ « كتاب الخمائر الصغير » ، ليكون مرجعاً قريباً من الراغبين في البحث في الخمائر . أما كتابه الآخر « فضلات الخمائر » ، فيجوز أن يكون جزءاً استله من كتاب الخمائر الكبير ، ويجوز أن يكون كتاباً مستقلاً وضعه في الفضلات المتولدة من الخمائر .

وقد أشار بروكلمن الى كتاب آخر في هذا الموضوع دعاه « كتاب واحد الخمائر »[1]. لا أدري أكان أحد هذه الكتب المذكورة ، دخل على عنوانه بعض التحريف ، أم كان كتاباً آخر ألفه في هذا الموضوع .

وأما كتاب التدابير في الخمائر ، فلم يذكره ابن النديم . ولكنه ذكر كتابين قد يكون لأحدهما أو لكليهما صلة به ، اسم أحدهما « كتاب التدابير الرائية » ، واسم الآخر « كتاب التدابير » . وقد وضع ابن النديم بعد اسم الكتاب الثاني كلمة « آخر »[2] بمعنى أن هذا الكتاب الثاني ، هو كتاب آخر يختلف في بحثه عن ذلك الكتاب . فلعل لأحد الكتابين المذكورين علاقة بكتاب التدابير في الخمائر . وقد أورد بروكلمن اسم كتاب دعاه : « كتاب التدابير »[3] . قد يكون هو هذا الكتاب الذي نبحث عنه ، وقد يكون الكتاب الآخر الذي أشار اليه صاحب الفهرست ، وذلك إذا كان كتاباً آخر لا علاقة له بذلك الكتاب .

وأما كتاب غرض الأغراض ، فقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم ، لكن بهذه الصورة : « عرض الأعراض »[4] . وهذا الفرق الذي نراه في العنوانين نشأ من تصحيف

(١) Brockelmann, Suppl., I, S. 428.

(٢) الفهرست (ص ٥٠٠) .

(٣) Brockelmann, Supp., I, S. 428, Asaf., III, 57S,

(٤) (ص ٥٠١) .

النسـخ .

وأما كتاب النظم ، فقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم [1] . وأما كتاب الميزان المفرد ، فلم يرد بهذا العنوان في فهرست ابن النديم ، وانما ذكر ابن النديم كتاباً آخر سماه كتاب الميزان ، قد تكون له صلة بهـذا الكتاب [2] . وأما كتاب صفة الكون ، فلم يذكره ابن النديم . ولم يذكر ابن النديم اسم كتاب الاثنين والثلاثين كذلك . والظاهر أن هذا الكتاب هو مجموعة رسائل على النمط الذي رأيناه ، يبلغ عددها اثنين وثلاثين ، فأطلق عليها هذا العنوان .

وأما كتاب الخواص الكبير ، فقد أشار اليه « الحاج خليفة » ، في أثناء كلامه على كتاب السرّ الرباني في علم الميزان لعلي بيك الرومي ، فقال ان هذا المؤلف قد استعان بكتاب الخواص الكبير لجابر ، وإنه أراد اظهار هذا السرّ سرّ الميزان ، الذي لم يشر اليه غير بليناس [3] . وقال في موضع آخر إنه « إحدى وسبعون مقالة ، أوله : الحمد لله كما هو أهله ومستحقه الكريم ... الخ بحث فيه في خواص الأشياء المتعلقة بالكاف » [4] .

هذا ، وقد نقل « سيكل Alfred Siggel » في فهرست المخطوطات الكيمياوية العربية المحفوظة في خزائن الكتب الألمانية » نتفاً من صفحات كتاب منسوب الى جابر ، اسمه كتاب المقابلة والمماثلة ، وقد وردت فيها أسماء كتب أخرى للمؤلف ، منها : كتاب السرّ المكنون ، وكتاب الحاصل ، وكتاب النظم . وفيها أيضاً قوله : « إني لما صنفت كتابنا المقابلة التي يكفي به (؟) ، وفسرت فيه الكتابين وذكر الأخرة والأحبار الأربعة (؟) الذين ذكرتهم فيه ، عرضته على سيدي جعفر بن محمد عليه السلام ، فقال له (؟) : اقرأه علي .

---

(١) الفهرست (ص ٥٠١) .

(٢) ص ٥٠٢ .

(٣) كشف الظنون (٢/٥٩٢) .

(٤) المصدر نفسه (٥/٨٢) .

فلما قرأته عليه ، قال لي : ما ظننت بك يا جابر أن تسمح لنفسك بهذا (؟) السماحة في كشف الحكمة المصونة والعلم الإلهي ... » [1].

هذا ، وقد ذكر بروكلمن كتاباً منسوباً الى جابر سماه « كتاب في الطلسم وتحورات الكواكب للمماثلة والمقابلة » [2] ، قد تكون له علاقة بهذا الكتاب . فقد وردت في هذه النتف هذه العبارات : « .. إنا قد وفينا بما قد وعدنا في كتابنا الذي سميناه بكتاب المقابلة ، وذلك أنا قد قلنا في غير موضع إن موضع الميزان والطلسمات واستخدام العلويات إنما هو على المقابلة والمماثلة ... نظرت الى ذلك من أي قسم من أقسام الطبائع هي .. » [3]، ولهذه الكلمات بعض الصلة بالموضوع .

وقد أورد بروكلمن أسماء عدد من الكتب المنسوبة الى جابر بن حيان ، وسمى بعض خزائن الكتب التي قد توجد فيها [4] . وبعض هذه الكتب مذكور في فهرست ابن النديم ، وبعضه غير مذكور . ولهذا فان قائمة بروكلمن وأسماء الكتب التي فيها والواردة في ثنايا الكتب والرسائل المنسوبة الى جابر بن حيان ، تزيد في عدد الكتب التي ذكرها ابن النديم ، وتزيد في علمنا نحن بهذه الكتب العديدة والثروة العلمية القيمة المنسوبة الى جابر ابن حيّان .

وقد أشار أبو القاسم محمد بن أحمد العراقي السماوي ، من رجال القرن السابع للهجرة على ما يظن [5] ومن المشتغلين بالكيمياء أيضاً ، الى كتاب لجابر اسمه « كتاب الروضة » ،

(١) Alfred Siggel, Katalog der Arabischen Alchemistischen Handschriften Deutschlands, 1949, S. 15.

(٢) Brockelmann, Suppl., I. S. 429. Num. 61.

(٣) س ١٠

(٤) Brockelmann, Suppl., I, S. 426. ff,

(٥) Holmyard, Kitab Al 'Ilm al-muktasab fi Zira'at adh-dhab, P. 5.

وهو في الكيمياء على مايظهر ، لنقله منه فقرات في « باب التكليس »[1]، وذكر كتاباً آخر اسمه « كتاب الابدال من الخمس مئة » ، ونقل منه أيضاً [2] . والظاهر أن هذا الكتاب هو في الفلسفة ، وفي أمور في الصناعة وفي غيرها مما لها علاقة بالفلسفة كما يتضح ذلك من الكتاب المنسوب الى جابر المتضمن مؤلفاته ، وقد ورد فيه : « ثم ألفت بعد ذلك خمس مئة كتاب ، نقضاً على الفلاسفة » [3] .

ووردت في « كتاب درة الغواص وكنز الاختصاص في علم الخواص » للجلدكي أسماء بعض كتب أفاد من النقل منهـــا ، نسبها الى جابر ، هي : الرسائل الجابريـة في الخواص والموازين ، وكتاب المقاصد ، وكتاب التجميع ، وكتاب روضة الفلاسفة [4] . ونقل المؤلف في كتابه المسمى « كتاب انوار الدرر في إيضاح الحجر » من كتاب آخر نسبه الى جابر بن حيّان ، هو « كتاب الأطيان » [5] .

وقد استند ايدمر بن علي الجلدكي في كتابه البرهان في أسـرار علم الميزان ، وهو كتاب يقول فيه الحاج خليفة إنه كتاب كبير يقع في أربعة أجزاء كبار ، الى « كتاب جابر في الاجساد » ، وحل فيه غالب كتاب الموازين لجابر ، كما استعان بكتاب « بلبناس » في الأجساد الأربعة [6] ، وذكر له كتاباً آخر اسمه « روح الأرواح في الإكسير » [7] .

---

(١) المصدر نفسه (ص ٢٩) .

(٢) كذلك (ص ٤٦) .

(٣) الفهرست (ص ٥٠٣) .

(٤) « روضة الفلاسفة لجابر المذكور ، اعني صنعة الكيمياء وعمل الإكسير » .

A. Siggel, Kata. Arab. Alch., S. 74. ff.

(٥) ص ٢٢ ، ٢٨ ، A. Siggel, S. 84.

(٦) كشف الظنون (٢/٤٨)

(٧) المصدر نفسه ، ٢/٤٨٢) .

وقد وردت تقول في « كتاب الكنز في ذلك الرمز » ، وهو من الكتب المحفوظة في خزانة الكتب البروسية في برلين من كتب جابر . وقد رجع مؤلفه ، وهو مجهول عندنا لم يرد اسمه في الكتاب ، الى جملة كتب من كتب جابر ، منها كتاب سماه « العلم المخزون والمعروف »[1] .

وورد في « كتاب الفتوحات الغيبية في تدبير الأرواح الحكمية » ، لمؤلف مجهول يظن أنه عبد الكريم بن يحيى بن عثمان المراكشي ، ذكر كتاب من كتب جابر اسمه : « كتاب الصافي من الخمس مئة » ، ويظهر أنه من هذه المجموعة المعروفة بالخمس مئة كتاب التي أشرت اليها فيما سلف . وقد اقتبس منه في الفصول التي عقدها في « المركبات »[2] .

وورد في « كتاب الجوهر النضير في صناعة الإكسير » لمحمد بن عبد الله الطغرائي ، ذكر كتابين من الكتب المنسوبة الى جابر ، هما : كتاب المجردات ، وكتاب الكشف[3] .

وقد كانت لجابر بحوث في الفلك والأسطرلاب . ذكر محمد بن سعيد السرقسطي المعروف بابن المشاط الأسطرلابي الأندلسي « أنه رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تأليفاً في عمل الأسطرلاب يتضمن ألف مسألة لا نظير لها »[4] . وقد ذكر ابن النديم أسماء كتب له في علم الهيئة والفلك وفي شرح المجسطي وغير ذلك من العلوم .

وذكر الحاج خليفة في كشف الظنون كتباً أخرى لجابر ، هي كتاب علل المعادن ، وقال إن أوله : « الحمد لله الذي خلق الأشياء من قدره الخ .. » ، وكتاب العلم المخزون في

(١) A. Siggel , Kat. S. 95.

(٢) A. Siggel, Kat., S. 100, f.

(٣) A. Siggel, Kata., S. 144.

(٤) ابن القفطي : إخبار العلماء بأخبار الحكماء (ص ١١١) .

الصنعة [1] . وكتاب الاحراق ، وقال : إن أوله « الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت .. » [2] و « كتاب الخالص في الكيمياء لشيخ جابر بن حيان الطرسوسي ، وقيل الطوسي امام علم الكيمياء المتوفى سنة ١٦٠ ، ذكر فيه أسرار الصنعة » [3].

وكتاب الشعر [4] ، وقد ورد اسمه في فهرست ابن النديم [5] ، و « كتاب الصافي من الخمس مئة » وقال : أن أوله « الحمد لله الجازي بالاحسان المتفضل بالغفران » ، وهو ورقة كما يقول الحاج خليفة [6] ، وهناك رسائل في هذا النحو يُخالُ من أسمائها أنها كتب ، وهي ورقة أو جملة أوراق .

وقد يكون كتاب العهد المبتدأ بهذه الجملة : « هذا كتاب العهد اليكم يا بني الأكارم ... » ، من هذا القبيل . فقد أشار الحاج خليفة الى أنه مختصر [7] . وأما كتاب القمر في الصنعة ، فهو من جملة المئة والاثنى عشر كتاباً ، وقد أشار الحاج خليفة اليه كذلك [8] . وأما كتاب المعادن . فالظاهر انه كتاب علل المعادن الذي مرّ ذكره ، وذلك كما يفهم من إشارة الحاج خليفة اليه ، وهو في علل المعادن وأسبابها [9] .

---

(١) كشف الظنون (٤/٢٤٦ وما بعدها) .
(٢) المصدر نفسه (٥/٣٤) .
(٣) المصدر نفسه (٥/٧٩) .
(٤) « كتاب الشعر لجابر بن حيان الفيلسوف الطوسي المتوفى سنة ١٦٠ » ، كشف الظنون (٥/١٠١) .
(٥) الفهرست (ص ٥٠٠) .
(٦) كشف الظنون (٥/١٠٦) .
(٧) كشف الظنون (٥/١٢٠) .
(٨) المصدر نفسه (٥/١٣٢) .
(٩) كذلك (٥/١٠٢) .

ونسب الحاج خليفة كتاباً آخر الى جابر اسمه : كتاب النخب ، وقال إنه في مجلدين[1] . وأما كتاب منافع الحجر ، فهو من المختصرات ، وقد ذكر الحاج خليفة أن جابراً قد أودع فيه أسراراً كثيرة من الصنعة[2] . وذكر له كتاباً آخر اسمه مهج النفوس ، ولم يذكر شيئاً عنه[3] . وكتاباً آخر أيضاً اسمه نهاية الأدب[4] .

ولتكوين رأي صحيح صادق في علم جابر ومصادره ، وفي حقيقة هـذه الكتب والرسائل المنسوبة اليه ، لا بد من الرجوع الى المتبقي منها من مخطوط أو مطبوع والى المقتبسات من كتبه في الكتب الأخرى ، لدراستها دراسة علمية عميقة ، وتحليلها تحليلاً يؤدي الى معرفة العناصر التي كونت هذه الكتب والرسائل ، والزمن الذي دونت فيه ، وذلك يحتاج بالطبع الى وقت طويل يقضى في استيعاب موضوعاتها ودرس أساليب التعبير عن الموضوعات العلمية في ذلك العهد وفي المصطلحات التي كانت شائعة أيام جابر . وفي مقارنات بالكتب المؤلفة في هذا الباب .

وبين هذه المؤلفات ما ورد اسمه في فهرست ابن النديم كما رأينا ، أو في موارد قديمة أخرى ، ولهذا لا نستطيع الشك في وجودها في أيام من أشار اليها أو في أيام سابقة لأيامهم . ويمكن التأكد منها أيضاً بمقابلتها أو بمقابلة نتف منها ، إن كانت قد فقدت ولم يبق منها غير نتف ، بالمقتبسات منها في مؤلفات آخرين . وسترينا هـذه الطريقة بالطبع درجة التطابق والتوافق أو الاختلاف . وهي طريقة تساعدنا ولا شك في تعيين الأصل ، وصحة النسبة الى المؤلف . وستوصلنا الى معرفة أقدم مورد أشار الى الأثر ، والزمن الذي تنتهي عنده أقوال الرواة .

(١) كشف الظنون (٥/١٦٣) .
(٢) المصدر نفسه (٦/١١٠) .
(٣) كذلك (٦/٢٧٣) .
(٤) كذلك (٦/٣٦٦) .

ونظراً الى ما في بعض هذه الكتب والرسائل من مصطلحات وتعابير تشعر أن صاحبها من المعتقدين بالإمامة ، وانه على رأي الإسماعيلية الباطنية ، لاستعماله مصطلحاتهم وتعابيرهم وآرائهم في بعض هذه الرسائل ، لذلك وجب مطابقتها ومقارنتها بما ورد منها في رسائل اخوان الصفاء وفي كتب الباطنيين ، والرجوع الى تواريخ أبتداء ظهور تلك المصطلحات لنتوصل بذلك الى أصل هذه المؤلفات المنسوبة الى جابر ، وللوقوف على مذهب جابر إن صح أنها له ، أو وقت وضعها عليه ونسبتها اليه ، إن ظهر أنها لا يمكن أن تكون من الأيام التي عاش فيها جابر ، لوجود موانع تأريخية تمنعنا من الأخذ بنسبة هذه الآثار اليه .

ولا بد كذلك من الرجوع الى الشروح التي وضعها العلماء ولا سيما المتقدمين منهم على كتب جابر ، مثل شرح أبو قران التميمي على كتاب الرحمة . وأبو قران من أصحاب صناعة الكيمياء ، وهو ممن يشير اليه أهل هذه الصناعة ويقدمونه ويفضلونه [1] . وشرح ابن أبي العزاقر ، وهو أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني على كتاب الرحمة [2] . والشلمغاني من الشخصيات المعروفة المشهورة في تأريخ الشيعة . وقد اتهم بالزندقة وبالاحتيال وبأمور أخرى يخرجنا سردها هنا من صلب هذا الموضوع .

وشرح « محمد بن منكيمشين » كتاب الرحمة في الكيمياء ، شرحه ليسهل على طلابه الوقوف عليه وفهمه و « رحمة على الطلاب المخدوعين وتقرباً الى الله تعالى به . وشرح منه أصول الصنعة التي لا غناء من الطالبين عنها » [3] .

والحديث في الكيمياء يجرنا الى الحديث في موضوعات أخرى لها صلة شديدة بالكيمياء ، بل هي في الواقع فروع من هذا العلم ، مثل السموم وعمل الصيدنة « الصيدلة » وصنعة

(١) الفهرست (ص ٥٠٠) .
(٢) المصدر نفسه (ص ٥٠٢) .
(٣) كشف الظنون (٥/٨٦) .

العطور وكتب الصنعة بصورة عامة .

وصناعة الكيمياء في نظر علماء ذلك العهد ، هي صنعة الذهب والفضة من غير معادنها [1] . ويقصدون بذلك صنع الذهب والفضة من معادن أخرى خسيسة ذات ثمن بخس ، أبخس من ثمن المعدنين ، وذلك بتحويل خصائص المعادن الخسيسة بالطرق الكيمياوية الى خصائص الذهب أو الفضة ، ومتى تغيرت هذه الخواص واكتسب المعدن الخسيس خواص جديدة هي خصائص معدن الذهب أو الفضة صار ذلك المعدن ذهباً أو فضة بحسب نوع التحويل .

والكيمياء في نظر أولئك العلماء ، علم قديم جداً ، ينسبه بعضهم الى موسى وهارون فيذكرون أن الله أوحى بسرّ هذه الصناعة اليهما ، فتعلماه منه . وذلك لما رأى الله أن قارون ، وكان يتولى لهما ، كبر وتجبر لما كثر عنده الذهب والفضة وكنز الكنوز ، وسطا بما عنده من الأموال ، فعاقبه الله بدعاء موسى . ويذكرون أيضاً أن هذه الصنعة كانت معروفة قبل « هرمس » بألوف سنين ، وأن « هرمس » كان عند بعضهم أول من تكلم في علم الصنعة .

جواد علي

— للبحث صلة —

(١) الفهرست (ص ٤٩٣ وما بعدها) .